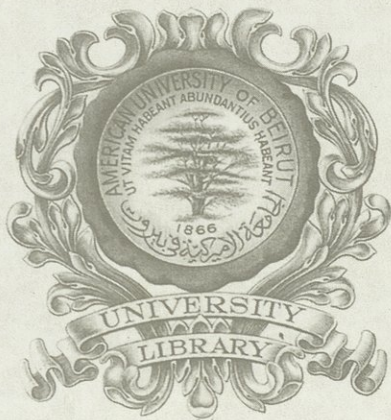


سرور

التصوف الإسلامي



AMERICAN  
UNIVERSITY OF  
BEIRUT



مجلد صالح الدر  
تقوین ۱۳۱۷



A.U.B. LIBRARY

~~297-3~~

~~DU 9 627~~

~~JUN 5~~

~~JUN 24 1959~~

~~JUN 26 6~~

~~JUN 19 1972~~

~~MAR 12 1965~~

~~JUN 20 1966~~

~~27 Jan 64~~

JAFET LIB.

~~JUN 1 1988~~

~~1 JUN 68~~

JAFET LIB.  
1 - FEB 1996  
Circulation Dept.

~~1 JUN 69~~

~~19 JUN 1972~~

JAFET LIB.

~~4 APR 1993~~

JAFET LIB.  
01 JUN 1996  
Circulation Dept. 3

JAFET LIB.

~~27 APR 1993~~



A



طه عبد الباقى سرور

297.4

Su9627A

C.1

التصوف الإسلامى  
والأمام الشعرانى

مكتبة البيع والنشر

مكتبة نهضة مصر ومطبعتها

---

مطبعة نهضة مصر بالبحر الأحمر  
القاهرة



THE UNIVERSITY OF CHICAGO

LIBRARY

1911



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بين يدي الطبعة الثانية

منذ خمسة عشر عاماً ، وهذا القلم ينطلق على أجنحة من هدى الله وتوفيقه ، ليخلق في سموات التصوف وآفاقه ، يقبَس من كل نجم ، أبهى أشعته ، ومن كل زهر أظهر عبيره ، ومن كل لحن أسمى أنغامه ، ويمزج الطهر بالخير ، والنور بالعطر ، والشعاع باللحن ، والجمال بالإيمان ، ثم يتجلى رضاه الله ، فمتحول كل هذه المبهجات ، إلى كلمات مؤمنات مشرقات ، تضح بالحياة ، وتنبض بالقوة ، وتقدم زاداً روحياً ، للقلوب المتفتحة ، ونعماً علوياً للأرواح العابدة ، ومنهاجاً وضاء هادياً لخير أمة أخرجت للناس .

منذ خمسة عشر عاماً ، كان مولد هذه الدراسات الصوفية التي تتابعت أجزاءها ، وتماسكت حلقاتها ، واتحدت لبناتها ، في سبيل السمو والشموخ بالصرح الصوفي الذي تترقبه القلوب العابدة ، وتأمل أن يكون حصناً من حصون الإيمان ، ونقطة ارتكاز قوية للوثبة الإسلامية الكبرى .

وشامت عناية الله - ونحن أرقاء هذه العناية - أن يستقبل العالم الإسلامي هذه الدراسات استقباله لأضواء الفجر ، وقطرات الغيث ، فنقدت طبعاتها سراعاً ، ولا يزال الحب يطالب بها ، ويلح عليها ، ويسر الله جل جلاله . فأعيدت طبعات كتابي ( الغزالي ) و ( محي الدين ) وهما هي ذى الطبعة الثانية من « التصوف الإسلامي » . والإمام الشعرائي ، محررة منقحة مضافاً إليها زيادات وتعقيبات لم تتيسر لنا في الطبعة الأولى ، نقدمها لعشاق التصوف والروحانية الإسلامية ، شاكرين نخورين ، وما توفيقنا إلا بالله رب العالمين . وهذا الكتاب هو واسطة العقدمن هذه الدراسات فقد تميز بمناهج كاملة



للتصوف وأهدافه ورسالاته ، وما يحمل بين أجنحته من خير وهدى ورحمة للموقنين .

كما عني عناية كبرى بتنقية التصوف من كل ما نسب إليه ، ودس عليه من مذاهب فلسفية ، ودجلية شعبية ، مما امتلأت به حقايب التاريخ وفاضت به صحف المغرضين ولجونهم .

إنه لصورة كاملة للثروة الصوفية الضخمة ، صورة صادقة لأقوى روحانية عالمية مشته بين الناس ، بالسلام والجمال ، والخير والحب ، واليقين ، المشرق المبين .

وانقذت هذه الطبعة الجديدة في ميقاتها الذي أراده الله ، جاءت لتكون رداً حاسماً على هؤلاء الذين أمسكوا بمزمار إبليس وراحوا يرقون السحر الخادع المضلل هنا وهناك ، لينالوا من التصوف والمتصوفة ، وليتسلطوا إلى منائر الإيمان محطمين مدمرين .

هؤلاء الذين ملؤوا أفواههم بكلمات كأنها رؤوس الشياطين غلظة وبشاعة ، محاولين أن ينقضوا الصرح من أساسه ، ويحطموا المحراب على على الساجدين العابدين .

لقد أمسكوا وحدثهم برحمة الله ، ويديعون الجنة لأنصارهم ، واللظى والكفر والمروق لغير الساجدين على عتبات من يسجدون لهم ، كل شيء بدعة؟ وكل شيء ضلالة؟ وكل تسبيحة جحود ، وكل تكبيرة مروق ، إلا تكبيراتهم ، حيث يحلو لهم التكبير والتهيل .

ولن نقف طويلاً مع خصوم التصوف التاريخيين ، لقد صاحوا حتى شقت حناجرهم عبر القرون ، ثم ذهبوا قبضة من رماد ، وصيحة من شيطان ، ذهبوا إلى الفناء ، وبقي التصوف بمنابرهم ومنائرهم ، ومواجيدهم ولجونهم ، يرشد الناس إلى ربهم ، يأخذ بأيديهم إلى الحياة الصاعدة الطاهرة .



ولست أدرى كيف تكون الحياة ، لو خلت من ذلك الإيمان الصوفي  
القوى الحار ، الذى يملأ سموات الوجود بألحان الحب ، وموسيقى السلام ،  
ووثبات الأرواح ، وأشواق القلوب .

إن المتصوفة لعالمقة بين أقزام ، عمالقة فى جهادهم لأنفسهم ، عمالقة  
فى أسلوب حياتهم ، وألوان تعبداتهم ، ومثالياتهم الممنحة المتعالية .

وحسب النهج الصوفي أن الله جل جلاله خلده فى قرآنه خلوداً لا يدنو  
منه الفناء .

• وأصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه  
ولا تعد عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن  
ذكرنا ، وأتبع هواه وكان أمره فرطاً .

تلك هى حجتنا ، وهذه آيتنا .

وبعد . . . ترى هل ذهبنا بعيداً ، ونحن نقدم كتابنا ، إن الدفاع عن  
التصوف لهدف من أكبر أهدافنا ، وعلى هذا الضوء تكون تلك الكلمات  
مقدمة طبيعية بين يدي « التصوف الإسلامى ، والامام الشعرانى » .

وتبارك رب العزة القائل « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى  
يتبين لهم أنه الحق » .

• ومن أحسن قولاً بمن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين ،

طه عبد الباقى سرور



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## الأفق الأعلى

الشعراني هو آخر نجم بزغ في الأفق الأعلى ، الأفق الأعلى للتفكير الاسلامي ، والنهج الصوفي .

ولقد درج التصوف مع الاسلام منذ يومه الأول ، أفقا خاصا للقلوب المتصدعة من خشية الله ، المتفجرة السنايع بحبه ونجواه وسماءا مجلوة للعقول السابحة في عجائب الكون ، المفكرة في ملكوت السموات والأرض ، وما فيها من آيات للموقنين ، العقول التي أودع فيها المهيمن نور الحكمة ورزقها جلاء البصيرة ، وفتوحات العبادة والطاعة ، واتقوا الله ويعلمكم الله .

والقلب المتصدع العابد . والعقل المفكر المؤمن ، والنفس المطمئنة الذاكرة المحبة ، يؤلفون معا ، النفحة العلوية ، المعلمة الملهمة ، التي ترتفع بالإنسان وترتفع حتى يكون من المهيمن الربانيين المندرجين تحت أفق قوله تعالى ( عبدا من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمتنا من لدنا علما ) .

ان شئت فسم تلك المثاليات بالتصوف ، أو بالأفق الأعلى ، وان أحببت فليكن عنوانها نورانية العبودية ، أو الروحانية الاسلامية .

فالتصوف هو جماع تلك المثاليات ، وهو الذي يرسم الأفق الأعلى لمن يتسامى ، الأفق الأعلى المشرق بالروحانية الاسلامية ، الأفق الأعلى الذي تتجلى فيه العبودية الكاملة بأنوارها والهوامتها .

وسبيل التصوف إلى تلك الآفاق ، هو الاستعداد الفطري ، الممثل في الحب الإلهي ، ثم الذكر الدائم ، والخلق الكامل ، والتطوع المتواصل ، لما فوق الفرائض والنوافل .



وفي الحديث القدسي « فلا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ،  
فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ، ويده التى  
يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وان سألنى لأعطينه ولان استعاضنى لأعيذنه . »  
تلك هى مرتبة النوافل وما أدراك ما هى ، ولكن فوقها مرتبة التطوع  
الدائم ، وهى جعل الحياة كلها ذكرا وعبادة « واذكر ربك فى نفسك تضرعا  
وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين .  
« كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحارهم يستغفرون ، وعباد الرحمن  
الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما والذين  
يقيمون لربهم سجدا وقياما . »

وافق تلك المرتبة ، مرتبة العبودية الكاملة الأثر المشهور « عبدى أظنى  
تكن ربانيا تقول للشئى كن فيكون . »

وهذا الأفق جبار المرتقى لا يدلل لكل طالب ، فلا يطيقه ولا يصبر  
عليه إلا صفوة من عباد الرحمن الذين اجنباهم واصطفاهم ، وجعلهم أئمة وهداة  
وورثة لأنوار النبوة المحمدية ، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا  
ذو حظ عظيم . »

وليس ما نقول ضربا من الأشواق الوجدانية والسجات الخيالية ، ( فقد  
روى أنس رضى الله عنه قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى  
إذ استقبله رجل شاب من الأنصار فقال له النبي صلوات الله عليه ، كيف  
أصبحت يا حارثة ، قال : أصبحت مؤمنا بالله حقا . قال انظر ما تقول فان  
لكل قول حقيقة ، قال : يا رسول الله ، عرفت نفسى عن الدنيا فأسهرت  
ليلى وأظمأت نهارى فكأنى بعرش ربى بارزا ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة  
كيف يتزاورون فيها ، وإلى أهل النار كيف يتعاونون فيها قال : أبصرت فالزم  
عبد نور الله الإيمان فى قلبه . »



وفي رواية أخرى عن محمد بن الحسن « لكأنى أنظر إلى ربي عز وجل فوق عرشه . يقضى بين خلقه » .

ذلك عبد نور الله الإيمان في قلبه — وما أجمل وأحلى هذا التعبير النبوي فعاش في الأفق الأعلى ، فتجلت عليه روح الاسلام ، فخلق بأجنحة قلبه النورانية حتى رأى الملائكة الاسنى فشاهد النار والجنة والعرش ثم ارتقى فرأى الله جل جلاله وهو يقضى بين خلقه ، رأى وشاهد تلك الآيات بعين الموقنين ، عين الايمان القلبي ، وهو يخاطر بقدميه على السيار الأرضي .

وقصة الخضر ، العبد الذي ارتقى فاهتدى ، فاتاه الله من لدنه علماً باطنياً ربانياً معجزاً لا يسامقه علم ولا تدانيه معرفة .

ذلك هو التصوف الذي كان له أكبر الأثر في توجيهات العالم الإسلامي الفكرية والتعبدية ، بل أكبر الأثر في فتوحاته وانتصاراته العالمية ، وفي رسم أهدافه ومثله العليا الاجتماعية والخلقية والروحية .

ذلك هو التصوف الذي استحال إلى شخصيات وبطولات ملهمة عبقرية تتفاعل مع الجماهير وتقودها فتهدى وترشدها ، واستحالت تلك البطولات إلى قوة روحية زاحفة مشرقة بالنور فياضة بالإيمان ، تطير بالوية الاسلام وتزكي شعلته وتحفظ مثابته ، وتفتح له الآفاق في شتى الميادين العقلية والعلمية .

وهذا هو التفسير الصادق لهذا الحشد الخالد من الشخصيات العجيبة والبطولات الفذة التي حفل بها تاريخ التصوف ، آيات معجزات لا نسمو عبقریات الدنيا إليهم ، ومثاليات تخجل حياتنا حين نتحدث عنهم ، وقوة روحية غلابة ملهمة لم يعرفها تاريخ الإيمان العالمي لسواهم .  
ولا بد لنا حينما نتحدث عنهم من أن نعقد الصلات بينهم وبين الروح



الصوفي الذي يعد مصدر هذه الطاقة ومشعل نورها وصانع أجنحتها .  
ومقياس عظمة كل عبقرية من تلك العبقريات اللدنية هو استعدادها  
للترقى في المعارج العلوية ، وطاقتها على تحمل العبودية الكاملة . والحب  
الإلهي الفاتح لباب الفيض الرباني .

• والباب الموصل للملك المعارج ، هو الاقتداء الكامل والاحتذاء الصادق  
الصارم ، بالمثل الأعلى للإنسان الكامل ، بالنبوة المحمدية صلوات الله وسلامه  
على صاحبها .

تلك النبوة التي تلقت الفيض كله كاملاً ، واستوعبته واطاقت تلقيه  
وصبرت عليه وعاشت له وبه فكانت رمره الأعلى ، وكانت أفقه الأسمى ،  
وكانت معينه الزاخر الفياض ، الذي تسكني قطرة منه لصوغ عبقرى ملهم  
من هؤلاء العباقرة الملهمين .

العباقرة الملهمين الذين عاشوا تحت أفق خاتم الأنبياء وسيد المرسلين عليه  
أفضل الصلاة وأتم التسليم كل بقدر ما فيه من استعداد للتلقي واستعداد  
للاستيعاب واستعداد للصبر والتحمل واستعداد للفيض والاشراق .  
وهذا هو السر في فهم المتصوفة واجلالهم للنبوة المحمدية . فهم ما اجلالا  
لا أغالى إذا قلت أنه يفوق مثيله في قلب كل محمدى .

لقد آمنوا بأن محمداً رسول الله ، هو المفتاح الرباني للأبواب الإلهية ،  
حيث تهطل الفيوضات والفتوحات ، وإن السر كل السر في المفتاح والباب ،  
فكل من حاد عن الطريق السوى ، طريق الهدى المحمدى ، فقد المفتح وتوارى  
عنه الباب ، فحرم من الفتح والعطاء وضل سواء السبيل .

تلك هي المدرسة التي أنجبت عباقرة التصوف ، مدرسة الاحتذاء والاقتداء  
بالسنة المحمدى ، مدرسة العبودية الكاملة ، ولقد كانت تلك المدرسة  
ولا تزال ، قلب الاسلام وروحه وأفقه الأعلى .



وتلك المدرسة المحمدية ، مدرسة التفكير في آيات الله ، والتعبد المتواصل في محارِب الحياة ، وكل ما في الحياة محارِب ومساجد للمؤمنين الموقنين ، مدرسة الحب الإلهي بما فيها من إشراق وإلهام وفيوضات ، هي التي أنجبت أبا المواهب ، الزعيم العملاق عبد الوهاب الشعراني .

والشعراني عجيبة ضخمة من عجائب تلك المدرسة . أو إن شئت فعجيبة من عجائب التصوف وصنوعة من صنائع الإيمان ، ولطيفة من لطائف التقوى ، وقبس من أقباس النور المفاض على الأرواح المتطهرة العابدة .

فدعك من البحث عن مدرسته العلمية ، ودعك من البحث عن مناهجه ودراساته ، فقد كوَّنته الهامات القلب ، وسبجات الروح ، وأبرزته الطاعة والخلوة ، والمحبة والحضرة ، ورعته وحبته وزكته ، عناية الله ورضاه .

وليس معنى هذا أن الشعراني لم يكن عالماً فخلاً ودارساً مبرزاً على معاصريه في علومهم ومعارفهم ، وإنما نريد أن نقول أن تلك العملاقية العلمية التي ارتفعت به منارا ، فنت في نوره علوم معاصريه ، وتضاءلت حباله معارف مصاوليه ومجادليه ، كان سرها أنها من الأفق الأعلى ، من التبعية الرباني الذي لا تقف لهاماته ولا تنضب إمداداته .

وحسب الشعراني أن رجال الاستشراق عكفوا على كتبه يستنطقونها ويتلمسون أسرارها ويقبلونها على أوجه شكوكهم الملحة ، ويعرضونها على موازينهم القاسية ، وخرجوا بعد الشوط الطويل يخنون الهامات أمام العملاق الضخم الشاخص . ويطلقون القول معترفين في وضوح وصرامة بأن الشعراني أعجوبة من أعاجيب العباقرة المتصوفين ؛ أعجوبة لا يكاد تاريخ الإسلام يعرف لها مثيلاً .



يقول المستشرق « فولرز » ( إن الشعراني كان من الناحية العلمية والنظرية صوفياً من الطراز الأول ، وكان في الوقت نفسه كاتباً بارزاً أصيلاً في ميدان الفقه وأصوله ، وكان مصلحاً يكاد الإسلام لا يعرف له نظيراً ، وإن كتبه التي تجاوزت السبعين عدا من بينها أربعة وعشرين كتاباً تعتبر ابتكاراً محضاً أصيلاً لم يسبق إليه أبداً ولم يعالج فكرتها أحد قبله . )

ويقول العلامة « ماكدونالد » ( إن الشعراني كان رجلاً ذاكراً نفاذاً مخلصاً واسع العقل ) ويقول في موضع آخر « إنه كان يجمع بين أعظم المميزات وإنه كان مشرعاً ذا أصالة ونفاذ . وكان عقله من العقول النادرة في الفقه بعد القرون الثلاثة الأولى في الإسلام ، وإنه رجل أخلاق تهزه أنفة عالية ) .

ويقول المستشرق - نيكلسون - عنه « إنه أعظم صوفي عرفه العالم الإسلامي كله وإنه منذ فتح المغول العالم الإسلامي . ركبت الحركة الفكرية في الإسلام واقتصرت علماءه على الجمع والتقليد . فلا نجد بوادر انطلاق أو إنتاج خصب منتج أو أي أثر لتفكير أصيل وضيء ، باستثناء شخصيتين شاذتين هما ابن خلدون المؤرخ ، والشعراني الصوفي ، وكان الشعراني بالذات مفكراً مبدعاً أصيلاً ، أثر تأثيراً واسع المدى في العالم الإسلامي ، يشهد به إلى يومنا إلحاح القراءة إلحاحاً متواصلاً في طلب مؤلفاته . »

تلك هي شهادات العلماء العالميين الذين وزنوا الشعراني بموازينهم العلمية الدنيوية ، لا بميزان التورانية الصوفية ، ومع هذا فقد ارتفعت به موازينهم إلى القمة المنفردة شموخاً وخلوداً .

ولنعد إلى الأفق الأعلى ، أفق التصوف الوعر العسير المرتقي ، لقد صعد الشعراني في معارجة ، وتنسم الذروة في محرابه ، وتزعم وساد في آفاقه .

والصعود في تلك المعارج ، وتنسم الذروة والزعامة والسيادة الصوفية ؛



قد أتاحت من قبل الشعراني لغير قليل في هذا الأفق .

ولكن الشعراني كان آخر نجم في ذلك الأفق ، آخر نجم بحسب الترتيب الزمني ، ولهذا انفرد وحده بخوض أعنف معارك التصوف في أحلك الأزمنة وأقساها وأشدّها .

وحسبه أنه حارب كل معاصريه حتى المتصوفة ، المتصوفة إسماعيلياً بمعنى فلقد فقد التصوف في عصره حلاه وعلاه .

حارب وحده ، وانتصر وحده ، وارتقى الذروة وحيداً ، وأقام للتصوف دولة عاشت طوال حياته عزيزة غلبة .

حارب وانتصر في أشد العصور الإسلامية رهبة وظلاماً وجوداً وجهلاً فاطلق آية النور المبصرة التي تمحو الظلمات ، وأعاد للفكر الإسلامي قوته وهداه ، وأعاد إلى القلوب القلقة إيمانها وتقواها .

كانت الأمة الإسلامية قبيل عهده تعيش في ظلمات يعلو بعضها بعضاً ، ظلمات خارجية تمثلت في أمواج بربرية من جنود المغول والتتر قادمة من المشرق تجتث الشعوب الإسلامية من أسامها وتدمر حضارتها وتطفى شعلتها وأمواج صليبية قادمة من المغرب ، فوارة بالغضب والتعصب مشرعة السيف بالحقد والبغضاء .

وفي الداخل كانت الظلمات أشد وأقسى ، كان الركود الروحي هو العلة الكبرى ، فإن التسوية التي قام بها الغزالي بين المتصوفة والفقهاء كانت قد أهدرت من جانب الأشاعرة الذين سلوا سيف الاجماع المصطنع ضد المفكرين تارة وضد المتصوفة تارة أخرى .

حتى إن تاريخ الفسك الإسلامي بعد الغزالي منذ القرن السادس الهجري هو تاريخ النزاع المشبوب بين المتصوفة والأشاعرة ، من جهة وبين المتصوفة



ورجال الحديث من جهة أخرى ، وأعقب هذا الصراع العنيف هبوط فكري عام في قواهم جميعا ، كما تنتج المعارك الحربية الضعف والانهيار في القوات المتحاربة ، وتحمل العالم الاسلامي بأسره وزر تلك المعارك الجدلية الهوجاء جهلا وجمودا ، وبلادة ذهنية ، وخمودا روحيا قاتلا .

وجاء ابن تيمية في أواخر القرن الثاني عشر للميلاد في قعقعة وزوبعة ، يملأ الدنيا صياحا ضد كل مفكر سواه . ويخص بحملته الكبرى ومركته العظمى التصوف والمتصوفة .

نادى ابن تيمية بالمعنى الحرفي للقرآن ولم يقبل في الآيات المجسمة تأويلا وفسق كل المذاهب الاسلامية في علم الكلام ، وحرّم الاجتهاد على الناس جميعا وأباحه لنفسه ، فحدد صفات الله تعالى حسب رأيه . وحرّم زيارة الأولياء وقراءة القرآن لهم ، وتعالى فنّادى ، بأن من يزور قبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه تقربا أو طلبا للشفاعة فهو ضال مبتدع .

وعاش ابن تيمية حليف السجون ومات ، سجيناً . ولكنه كان قد اطلق صيحة ملتهبة متوقدة الجمر وتناول اتباعه كلماته فضخموها وأبسوها أردية فضفاضة زادت نار الحرب وقودا وضراما ، حتى امتلأت شوارع القاهرة بالصراع والدماء بين اتباعه والمتصوفة ، كما يقول الجبرتي .

وكان السبب الأكبر في هذا الجدل والحوار ، وفي تلك الخصومات المجنونة الرعناء ، هو أن النهضة الاسلامية العلمية كانت قد خدمت جذوتها وخبأ ضوءها وأخذت البدع والخرافات والأساطير تنطلق في أفق العالم الاسلامي .

لقد ذبل المشعل الذي ظل يتقد عشرة قرون والذي أنارت أشعته الفكرية أرجاء الوجود ، ذبل بل فني مخنوقا في الظلمات .



ويكفي لتصوير ظلمات هذا العصر . ان التصوف وهو قلب الاسلام  
النابض . أصبح في تلك الصورة المهلهلة التي رسمها الشعراني بقلبه .

• كان التصوف حالا فصار كارا ، وكان احتسابا فصار اكتسابا ، وكان  
استنارا فصار اشتهارا ، وكان إتباعا للسلف فصار إتباعا للعلف ، وكان عمارة  
للصدور فصار عمارة للغرور ، وكان تعقفا فصار تملقا ، وكان تجريدا فصار ثريدا ،

يكفي لتصوير هذا العصر المظلم . أن الشعراني يحدثنا عن رجل يسمى  
الشيخ شعبان المجذوب كان يجلس على كراسي المساجد أيام الجمع وغيرها .  
ويقرأ ما يزعم أنه قرآن كريم . وقد سمعه الشعراني يقول على طريقة قراءة  
القرآن وما أتم في تصديق هود بصادقين . ولقد أرسل الله لنا بالموثفات  
يضر بوننا ويأخذون أموالنا ومالنا من ناصرين .

ثم يعقب على هذا قائلا « اللهم اجعل ثواب ما قرأناه من الكلام  
العزيز في صحائف فلان وفلان ، ويعلق الشعراني قائلا « ولم اسمع أحدا ينكر  
عليه شيئا من حاله ، بل يعدون رؤيته عيدا عندهم <sup>(١)</sup> .

وكان زميله إبراهيم العريان يصعد إلى منبر المسجد عاريا ويخطب الناس  
قائلا . السلطان ودمياط وباب اللوق وبين الصورين وجامع طولون ، والحمد  
لله رب العالمين ، فيحصل للناس بسط عظيم كما يقول الشعراني <sup>(٢)</sup> .

في تلك الظلمات وفي هذا الجو الزاخر بالجهالات ، بزغ نجم الشعراني  
متلأ مشرقا كأنه ظاهرة كونية جاءت في موعدها المحدد ووقتها المرسوم .  
جاء كوجه صوفية أطلقها البحر الأعظم لتجثت كل شيء من جذوره  
ثم تنحصر فتملأ الدنيا خصبا ونماء وبركة ونورا .

(١) الطبقات الكبرى ج (٢) ص ١٦٠

(٢) » » ج (٢) ص ١٢٤



وهبه الله ومن عليه ، فكان كما صاغته عناية الله ورحمته ، وكان أينما  
شرح قلبه تحف به الهبات والمنن فيأتي كلمه زخارا باليقين والهدى .

جاء مكافئاً مصلحاً ، وزعيماً قائداً ، ومرشداً هادياً ، فتمثلت فيه خصائص  
تلك الصفات فكان كما لقب ، أبا المواهب .

حرر التصوف من الأساطير والبدع ، وجلاه محمدياً قرآنياً ، كما أراده  
الله لعباده ، قوة روحية محلقة في الأفق الأعلى .

وحرر الفقه من جموده وتزمته فكان الأصولي الأملعي الذي مزج  
الفقه بحرارة الإيمان فأنقذه من الجفوة والجفاف . وحببه إلى الجماهير ، يوم  
جعله لا مجرد أحكام شرعية تخسب ، بل حقائق روحية مشرقة .

وحرر علم الكلام — التوحيد — من نزوات المجسدين وأهواء  
المجادلين ، وأعاده إلى نوره ورونقه الإيماني الذي عرفه واهتدى به الصدر  
الأول والتابعون .

وأنقذ الأمة الإسلامية من الجدل والحوار ، والجرى وراء الأوهام  
والخيبالات ، وردّها إلى النبع الصافي والعمل الخالص لوجه الله .

ولم ينسه جهاده الديني ، زعامته الشعبية فكان المصلح الاجتماعي المدافع  
عن الفقير والمسكين والضعيف ، القائم في وجه الولاة والحكام يرفع كلمة  
الحق وينزع حقوق الضعفاء من الأقوياء .

ووقفت الدنيا في عهده ترقب كلمة من فيه ، أو إشارة من يده ، فهو  
الملجأ والملاذ للمظلوم ينشد حقاً ، وللظالم يطلب رحمة ، وهو المرشد الهادي  
إلى حقائق الإيمان وإطائف العقائد ، ومشكلات الفكر والحياة ، وهو الزعيم  
الحبيب الذي إذا غضب ، اضطربت لغضبه قلوب الملايين .

وهو بعد هذا وذاك ، مؤرخ التصوف والمتصوفة ، وخليفة الغزالي



الأوحد على الجوانب الاخلاقية والاجتماعية والتعبدية في الاسلام، والمدافع  
الأكبر عن الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي فيلسوف التصوف  
العبقري ، ومحبي عالم الزوايا التي يعمرها القرآن والتي يسمع فيها ذكر الله  
آناه الليل وأطراف النهار.

وقد روى عن النبي صلوات الله وسلامه عليه ، عن ربه عز وجل  
« في الحديث القدسي ، إن أوليائي من عبادي الذين يذكرون بذكري  
وأذكروا بذكريهم .

تلك علامة المتصوفة ، وآية الشعرائي ، وفي الخالدين من يذكروا بذكر الله ،  
ومن يذكروا الله بذكروه . . .



## نشأته وحياته

أسرته :

إلى الدوحة العلوية الهاشمية يرتفع نسب الشعرائى ، فجدّه الأعلى هو محمد ابن الحنفية بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما .  
وقد هاجر أجداده إلى المغرب الأقصى فى الموجات المهاجرة من البيت العلوى التى اختارت الأطراف النائية من الإمبراطورية الإسلامية فراراً من الملاحم المتتابعة بينهم وبين البيت الأموى تارة ، وبين البيت العباسى تارة أخرى .

وفى المغرب الأقصى استطاع العلويون أن يؤسسوا دولاً ، وأن ينشئوا حضارات وأن يظفروا بالحب والتأييد من شعوب الشمال الإفريقى كافة .  
ولسكنهم مع هذا لم يستطيعوا أن يوحدوا كلمتهم ودولتهم ، بل انقسم بينهم إلى بيوت وتفرق جمعهم إلى قبائل وبطون ، ولهذا تعددت دولهم ، وتعددت بيوتهم المالكة ، وتعددت قبائلهم الحاكمة .

وكان الملك فى مدينة تلمسان وما جاورها لقبيلة بنى زغلة ، وإلى تلك القبيلة ينسب عبد الوهاب الشعرائى .

ومن خصائص العلويين ، أن الملك لم يصرفهم عن العلم ، ولم يباعد بينهم وبين الولاية الدينية ، والزعامة الروحية ، فكان منهم الملوك ، وكان منهم الأئمة الهداة .

ولهذا برى فى تاريخ بنى زغلة « أسرة الشعرائى ، الملك والتصوف يدرجان معاً ويعيشان معاً ويتقاسمان الحياة سوياً ، ونشاهد جده موسى



ابن السلطان أحمد يؤثر طريق الله على الملك ومجده ، فيتتلمذ على ابن مدين الصوفي ، ويترك المغرب مهاجراً إلى مصر تلبية لأمره .

ولقد أرخ الشعراى لنفسه فى كتابه المنن فلنتركه يحدثنا عن نسبه ، . . .  
• أحمد الله تعالى حيث جعلنى من أبناء الملوك<sup>(١)</sup> فإنى بحمد الله تعالى ، عبد الوهاب بن أحمد بن على بن أحمد بن على بن محمد بن زوفا بن الشيخ موسى المنكنى فى بلاد البهنسا بأبى العمران جدى السادس ابن السلطان أحمد بن السلطان سعيد بن السلطان فاشين بن السلطان محيا بن السلطان زوفا بن السلطان ريان بن السلطان محمد بن موسى بن السيد محمد بن الحنفية بن الإمام على ابن أبى طالب رضى الله عنه .

وكان جدى السابع الذى هو السلطان أحمد<sup>(٢)</sup> سلطاناً بمدينة تلمسان فى عصر الشيخ أبى مدين المغربى ولما اجتمع به جدى موسى قال له الشيخ أبو مدين لمن تنتسب ، قال : والدى السلطان أحمد ، فقال له : إنما عنيت نسبك من جهة الشرف ، فقال : أنتسب إلى السيد محمد بن الحنفية ، فقال له : ملك وشرف وفقير — أى تصوف — لا يجتمعن ، فقال : يا سيدى قد خلعت ما عدا الفقر ، فرباه فلما كمل إفى الطريق أمره بالسفر إلى صعيد مصر . وقال له أسكن بناحية ( هو<sup>(٣)</sup> ) فإن بها قبرك ، فكان الأمر كما قال ،

وإذن فالشعراى يقرر أن جده موسى قد حضر إلى مصر بإشارة صوفية من الامام أبى مدين ليتولى تربية المريدين والسالكين ، ويقوم للإيمان دولة على ضفاف النيل ، مؤثراً طريق الله ومجاهداته ، على نعيم الملك وأجاده .

(١) المنن جزء ١ ص ٣٢ .

(٢) هو أبو عبد الله أحمد الزغلى سلطان تلمسان وما والاها .

(٣) إحدى مدن مديرية قنا .



وهذا الأمر نهج صوفي نعرفه من تاريخ التصوف ، فالمتصوفة يعتبرون أنفسهم المدرسة الإسلامية الكبرى التي تهيمن وتشرف على القلوب المحمدية وتهيمن وتشرف وتشمّل أيضاً عن النهضة الإسلامية والعبادات الربانية ، ينظر المتصوفة إلى العالم الإسلامي على اعتباره أمة واحدة ، هم رأسه المفكر وقلبه الناбус ، ولهذا درج كيار المتصوفة على تربية أفاضال الرجال حتى إذا كملوا وأعدوا بعثوا بهم إلى المراكز الإسلامية التي تحتاج إليهم دعاة وهداة .

وإذن فقد استقر الشيخ موسى أبو العمران ببلدة ( هو ) وهي قرية كبرى من قرى الصعيد الأعلى ، وأهلها من قبائل الهوارة أولى البأس والعصية الإسلامية ، وأسس الشيخ موسى فيها زاوية غدت مركزاً من مراكز التصوف في مصر ومهداً من المهود التي يستنبت بها رجال الدعوة الصوفية .

ولم يحدد لنا التاريخ السنة التي هاجر فيها موسى إلى مصر ، ولكن كتب التاريخ حددت لنا تاريخ وفاته ، فقد توفي ببلدة ( هو ) عام ٧٠٧ هـ بعد أن نجحت دعوته واهتدى بهديها جمهور ضخم في الصعيد الأعلى .

واستمرت أسرة الشعراي بالصعيد تحمل لواء العلم والولاية حتى مطلع القرن التاسع الهجري فهاجر عميدها أحمد إلى ساقية أبي شعره بالمنوفية وأسس بها زاوية للعلم والعبادة . والتف الناس حوله ينهلون من معارفه وفتوحاته ، فقد عرف بالتفوق في العلوم الصوفية رغم أميته . كما اشتهر بالولاية والنفحات ، وانتقل إلى جوار ربه عام ٨٢٨ هـ .

وحمل اللواء بعده حفيده أحمد الذي أوتي حظاً من العلم المعروف في الأزهر في عهده وحظوظاً من العلوم الربانية التي اختلف بها المتصوفة . ثم تأذن ربك لهذا البيت الكريم ، بيت الملك والدين . بأن عهد كماله



وتمامه قد حان فوهبه في ليلة مباركة . الطفل العملاق عبد الوهاب الشعرائي

### مولده :

ولد الشعرائي عل أصح الروايات وأشهرها في ٢٧ من شهر رمضان عام ١٨٩٨ هـ وكان مولده في بلدة « قلقشندة » وهي قرية جده لأمه ، ثم انتقل بعد أربعين يوما من مولده إلى قرية أبيه وإليها انتسب ، فلقب بالشعرائي ، وعرف بهذا اللقب واشتهر به ، وإن كان هو قد سمي نفسه في بعض مؤلفاته بالشعراوى .

ولقد اضطرب رجال التاريخ في تحديد مولده ، فقد ذكر صاحب النور السافر تاريخاً لمولده قبل هذا التاريخ بقليل ، وقد ذكر صاحب المناقب الكبرى تاريخاً آخر ، وأما المناوى وعلى مبارك والمستشرق شاخت ، فقد أيدوا التاريخ الذى ذكرناه .

ونحن نرجع رواية المناوى لأنه تلميذ الشعرائي الأول وصفيه وصديقه وهو بعد هذا أكبر المؤرخين الصوفيين بعد الشعرائي ، ويزداد ترجيحنا لهذه الرواية اتفاهها مع رواية على مبارك وهو من أدق من أرخ لهذه الفترة من التاريخ .

واضطرب رجال التاريخ أيضا في الحديث عن طفولته ونشأته ، فذهب المستشرقان « كرويمر ، و « نيكلسون ، إلى أنه اشتغل في مطلع حياته — بالحياكة —

ولكن المستشرق « فولرز ، يسخر من هذا القول قائلاً : إن حياة الشعرائي كانت زاخرة بالعبادة حافلة بالتعليم فلم يكن من الميسور أن يجد وقتاً يحترف فيه عملاً .

ولست أدري من أين جاء المستشرقان بتلك الأقصوصة وتاريخ طفولة



الشعرانى صريح فى أنه لم يضع لحظة واحدة فى غير العلم والعبادة ، فقد حفظ القرآن وهو فى سن التمييز كما يقول ودرس كتب النحو قبل العاشرة .

فهل هذا تاريخ رجل وهب نفسه للعلم والعبادة أم تاريخ من يشتغل بالارتزاق من الحياكة ؟ والشعرانى يقول فى صراحة إن من ممن الله عليه ، أنه لم تكن هناك عوائق دنيوية تعيقني عن طلب العلم والعبادة . وكانت القناعة من الدنيا باليسير سداى ولحمى ، وهذه القناعة اغتنى عن الوقوع فى الذل لأحد من أبناء الدنيا ، ولم يقيم لى أننى باشرت حرفة ولا وظيفة لهما معلوم دنيوى من منذ بلغت ، ولم يزل الحق تعالى يرزقنى من حيث لا احتسب إلى وقتى هذا ، وعرضوا على الألف ديناراً وأكثر فرددتها ولم أقبل منها شيئاً وكان التجار والكبراء يأتون بالذهب والفضة فانثرهما فى صحن جامع العمرى فيلتقطه المجاورون ،

وجرى رجال التاريخ على أنه انتقل إلى القاهرة مع والده ، وأن والده قد سعى له حتى أدخله الأزهر الشريف .

وتلك الروايات أيضاً تنحرف عن الحق وتجانب الصواب ، فإن الشعرانى وهو أصدق من يؤرخ لنفسه يقول فى الممن « إنه حفظ فى قرينه القرآن الكريم وهو فى باكورة طفولته ، ثم حفظ أبو شجاع والأجرومية ودرسها على أخيه الشيخ عبد القادر بعد وفاة والده .

وإذن فقد مات والده كما ماتت والدته قبل حضوره إلى القاهرة ، وكان هذا كما يقول من ممن الله عليه إذ نشأ يتيماً من الأبوين ، فكان نصيره ووليه الله .

واقدمات والده عام سبع وتسعمائة للهجرة ودفن فى زاويته بساقية ألى شعره ، وتاريخ انتقال الشعرانى إلى القاهرة كما أرخه بنفسه أتى بعد تاريخ وفاة والده بثلاثة أعوام .



## الشعراني في القاهرة

مات أبوه وتركه طفلاً يتيمًا فقيرًا ، ولكن هذا الطفل اليتيم الفقير ، كان عجبًا ، كان عابداً متملاً مستغرقاً في صلواته واذكاره ، استغراقاً لا يعرف في مثل سنه ، وحسبك أنه كان يقوم الليل وهو في الثامنة من عمره .

وكان يؤمن في أعماق نفسه بأنه قد حُف بعناية ربانية تعصمه من النقص في دينه ، كما تعصمه من السوء في حياته .

وكان يؤمن بهذا إيماناً قلبياً وجدانياً ، ويسوق على إيمانه حشداً من الأحداث والأدلة التي وقعت له في طفولته ونجاه الله منها وحفظه من عواقبها .

وكان دارساً فطناً المعيا ذا شغف ونهم بالعلوم ، وحسبك أنه قبل أن يتم العاشرة كان قد درس من كتب النحو ما أهله لمجالسة العلماء .

وكان من يؤمن أيضاً إيماناً قلبياً وجدانياً بأن الله قد وهبه فوق الذاكرة الواعية الحافظة ، فهما في العلم وبصيرة في إدراك عوامضه ودقائقه .

مات أبوه فكفله أخوه العالم الصوفي الورع الشيخ عبد القادر . وعبد الوهاب يدين لأخيه بالكثير من التوجيه ، والحب الصادق ، والرعاية الكاملة الواهبة المانحة ، بل ويدين له فوق ذلك بالحضور إلى القاهرة ، حيث تفتحت أمامه الآفاق .

ويقص علينا الشعراني تاريخ حضوره إلى القاهرة بذلك الأسلوب الاخاذ الصادق الذي عرف عن الشعراني وعرف به . فيقول .

وكان مجي . إلى القاهرة افتتاح سنة عشرة وتسعمائة ، وعمري إذ ذاك



اثنتا عشرة سنة فأقمت في جامع سيدى أبو العباس الغمرى ، وحنن الله على شيخ الجامع وأولاده فكشفت بينهم كأنى واحد منهم آكل مايأ كلون وألبس ما يلبسون ، فأقمت عندهم حتى حفظت متون الكتب الشرعية وآلاتها على الأشياخ .

ثم يقول « ولم أزل بحمد الله محفوظ الظاهر من الوقوع فى المعاصى معتقداً عند الناس ، يعرضون على كثيرأ من الذهب والفضة والثياب ، فتارة أردها وتارة أطرحتها فى سخن الجامع فيلتهقها المجاورون ،

والشعرانى هنا يغفل الإشارة إلى حقبة من تاريخه فى طلب العلم ، وهى الفترة التى مكثها فى الأزهر .

فإجماع رجال التاريخ على أنه حضر من قرينته إلى الأزهر ، حيث قضى خمس سنوات يتلقى العلم على يد شيخه على الشونى ، الذى أحبه وقربه واصطفاه ، ثم انتقل بعد ذلك إلى مسجد الغمرى بناه على مشورة شيخه على الشونى .

ومسجد الغمرى كان فى ذلك الوقت منارة للعلم ومثابة للطلاب ، وكانت الحياة فيه على غرار أمثاله من المساجد التى تحولت فى العالم الإسلامى إلى معاهد علمية ، لا يكتفى فيها بالتعليم فقط بل تجرى فيها أيضاً الأرزاق من الأوقاف والهبات على من يلازمها ويتخصص للعلم فيها<sup>(١)</sup> .

ولبت الشعرانى فى مسجد الغمرى ، يعلم ويتعلم ويتمجد ويتعبد ، سعة عشرة عاماً ، ثم انتقل إلى مدرسة أم خوند ، وفى تلك المدرسة ، بزغ نجم

---

(١) يقول ابن خلدان ج ١ ص ٥٥ أنه كان فى كل جامع كبير مكتبة لأنه كان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على المساجد .

ويقول المقدسى أن المساجد فى القاهرة تحولت إلى معاهد عامرة بالطلاب حتى أنه أحصى فى المسجد الجامع بالقاهرة فى وقت الغناء مائة وعشرة مجلساً من مجالس العلم .



الشعراني وتألق تألقاً ملائماً الدنيا حوله صياحاً . صياحاً امتزج فيه هتاف الإعجاب من محبيه بعاصفة الانتقاد والافتراء من حساده وشائتيه .

وقد حاول بعض المستشرقين ، وجاراهم بعض دراسي الشعراني ، من المعاصرين أن يلقوا ظلالاً من الشكوك والريب حول انتقاله المفاجيء من مسجد الغمري إلى مدرسة خوند فخا كوا أسطورة خيالية حول حب الشعراني لابنة شيخ مسجد الغمري . وغضب والدها لذلك . ولم يأتوا بدليل واحد على دعواهم . وإنما أقاموها استنتاجاً خيالياً ، لأنهم كما يقولون لم يجدوا مبرر لهذا الانتقال فلا بد إذن أن يكون هناك ثمة سبب خفي وهذا السبب الخفي لا بد وأن يكون شجاراً بين الشعراني وشيخ المسجد . وهذا الشجار . لا بد وأن يكون أساسه حباً فاشلاً . بين الشعراني وابنة الشيخ .

وتلك الأسطورة الاستنتاجية أشبه بالروايات المهمللة التي أولع بها كتاب القصص الذين لا ينظرون إلى الحياة . إلا من وراء عدسات الخيال الجنسي .

ويحدثنا على مبارك عن تلك الفترة من حياة الشعراني فيقول « لقد راض الشعراني نفسه على النهج الصوفي وهو في جامع الغمري . فطارذ كره وذاع في الناس أمره . وكان شيخه على الشونى قد أذن له في أن يرتب بهذا المسجد مجلساً للصلاة والسلام على رسول الله . ولكن أولاد الغمري أكل قلوبهم الحسد على تلك المسكانة العالية التي ظفر بها الشعراني فطلبوا منه أن يغادر مسجدهم . »

ويروى صاحب النور السافر . أن الشعراني أخذته حالة وجد ذات يوم فصاح باسم الله صيحة ارتجت لها جدران المسجد . وكاد يتصدع منها بيت الشيخ أبي الحسن الغمري وكان على كئيب منه فاستفسر هذا عن صاحب الصوت . حتى إذا عرفه هم بالرحيل إلى بيت آخر . ولكن



الشعراني كان قد سبقه إلى الرحيل . تاركا وراءه كل ما يملك وولى وجهه شطر بين السورين حتى حط رحاله بمدرسة أم خوند وأقام تجاهها ستة أيام . فرأى في منامه أن رسول الله صلوات الله عليه قد أذن له بالإقامة بها . فدخلها مع أسرته .

ولا تعارض في الجوهر بين رواية علي مبارك وبين رواية صاحب النور السافر . ففي الرواية الأولى . أن أولاد الغمري نفسوا عليه مكانته حتى طلبوا منه الرحيل عن مسجدهم .

وفي الرواية الثانية أن الشيخ تظاهر بالرحيل لسبب تافه يضمور وراءه أكثر من معنى . وأدرك الشعراني الغاية والهدف من هذا التظاهر فسارع هو بالانتقال أدباً مع شيخه واختصاراً للخطوة الثانية التي لا ريب فيها بعد أن طغى اسم الشعراني على الشيخ وعلى أسرة الشيخ .

وإذن فهذا الانتقال كان سره التنافس والحسد لا الحب والهوى . كان ضرورة طبيعية للشعراني فقد آن أن يستقل بنفسه وبمجالسه العلمية . وأن له أن يكون صدرا لهذه المجالس لا مجرد تابع وتلميذ .



## الشعراني طالب العلم

جاء الشعراني من قريته إلى القاهرة مهاجراً في سبيل العلم فعاش تحت ظلال المساجد ليله ونهاره ، مبتلًا في طلب العلم ، عالماً في التعبد ، عاش للعلم والتقوى ، تقياً طاهراً مجدداً مكافحاً .

وقد اتصل منذ يومه الأول بالقاهرة بصفوة علماءها . جلال الدين السيوطي ، وزكريا الأنصاري ، وناصر الدين اللقاني ، والرملي . والسمنودي وأضرابهم وقد أفاض الشعراني في ذكر أساتذته بما استغرق صفحات و صفحات من كتبه . كما أفاض في ذكر إجلاله لهم ، وحبهم له .

و درس الشعراني على أساتذته المكتبة الإسكندنافية كلها بثبت فنونها وعلومها في التصوف والفقه والحديث والتفسير واللغة والأصول حتى عدا كما يقول : لا يتصور أحد من معاصريه أحاط بما أحاط به علماء أو تخلق بما تخلق به عملاً .

درس الشعراني كل معارف عصره العلمية . دراسة فهم وتدقيق بروح المجتهد المؤمن المحب ، بروح الطالب المثالي . الذي ينشد الحق فلا يتعصب لمذهب من غير دليل ، والذي يحمل أئمة الإسلام ورجال الفكر فيه ، فلا يسارع إلى تخيطة أحدهم ولا يبادر إلى الاعتراض عليه ، لإيمانه بأن علماء الإسلام وأئمة على هدى من ربهم ، وبصيرة من نور علمهم .

ثم هو بعد ذلك خاشع القلب متواضع : محارب العلم ، فإذا أدرك بفهمه لطيفة علمية أو لمس بدكائه واستنباطه حقيقة من حقائق المعرفة في كتاب الله وأحاديث رسوله ، فلا يجزم كما يقول بأن ما فهمه أو استنبطه هو مراد الله من آيه ، أو مراد رسوله من حديثه ، تأدباً وتحرزاً من دعوى العلم أو التلبس برداء كبره وغروره .



ومن لبقه العلمى أنه حفظ نفسه من الجدل والجدال ورفع الصوت في مجالس العلم ، ولنترك الشعرانى يحدثنا عن دراماته بأسلوبه البسيط الساحر . ثم لما جئت إلى مصر حفظت كتاب المنهاج للنووى ثم ألفية ابن مالك ثم التوضيح لابن هشام . ثم جمع الجوامع ثم ألفية العراقي ، ثم تلخيص المفتاح ثم الشاطبية ، ثم قواعد ابن هشام وغير ذلك من المختصرات . وحفظت هذه الكتب حتى صرت أعرف متشابهاتها كالقرآن من جودة الحفظ ، ثم ارتفعت الهمة إلى حفظ كتاب الروض مختصر الروضة ، لكونه أجمع كتاب في مذهب الشافعى ، فحفظت منه إلى باب القضاء على الغائب ، وهو في أواخر الكتاب ، فلقينى بعض أرباب الأحوال بباب الخرق — باب الخلق — خارج باب زويلة فقال لى مكاشفاً : قف على باب القضاء على الغائب ولا تقض على غائب بشيء .

فما قدرت بعد ذلك على حفظ شيء منه ، لكننى طالعت الكتاب ودرسته نحو مائة مرة وكنت أقرأ محفوظى للمتن فى الشرح . وأنظر كل شيء توقفت فى فهمه ؛ حتى صار شرحه للشيخ زكريا (١) عندى نصب عينى .

ثم لقينى الشيخ أحمد الهلول رضى الله عنه ، فقال لى مكاشفاً : أقبل على الاشتغال بالله ويكفيك من العلم ما قد تعلمته ، فشاورت فى ذلك مشايخى فقالوا : لا تدخل طريق القوم إلا بعد شرح محفوظاتك كلها على الأشياخ ، فإذا فهمتها وتبجرت فيها ، فعليك بطريق القوم ،

ثم يقول : وقرأت محفوظانى على شيوخى وهم نحو خمسين شيخاً ، فقرأت على الشيخ أمين الدين شرح المنهاج للجلال المحلى ، وكنت أطالع على درسى هذا ، القوت للأذرعى . والقطعة والتكملة للإسنوى والزرکشى ،

(١) الشيخ زكريا الانصارى شيخ الأزهر إبان ذلك الوقت .



والقطعة للسبكي ، والعمدة لابن الملقن ، وشرح ابن قاضي شهبه . وشرح  
الروض للشيخ زكريا الأنصاري ، وأكتب زوائد هذه الكتب على الشيخ  
جلال الدين ، وألصق به أوراقاً حتى ربما تصير الحواشي أكثر من  
الكتاب ، ثم أقرؤها كلها عليه .

وقرأت عليه أيضاً شرح جمع الجوامع للشيخ جلال الدين . وحاشية  
الشيخ كمال الدين . وشرح العراقي للجلال الحافظ السخاوي .

ويمضي الشعراني في الحديث عن دراساته وشيخوخته حتى يذهل القاريء  
بذلك الفيض الدافق من الكتب التي أحاط بها وألم بدقائقها وأسرارها .

الشعراني في طريقه إلى الله :

تنفس الشعراني أول ما تنفس الحياة في جو صوفي خالص . وفي بيت  
قوامه التعبد والتبتل ، فهو ينحدر من أسرة ترك رأسها الأول مجدد الملك  
ورفايته ونعيمه ، إلى المهج الصوفي ومجاهداته ومسارح تعبداته ؛ ومجال  
تأملاته ، وأجواء تحقيقاته . ومطالع أنواره وإلهاماته . حتى إذا كمل وارتوى  
واستوى انطلق داعياً إلى الله . على بصيرة من أمره .

وقفي أناؤه أثر خطواته . فما كان منهم إلا تقي نقي . وعالم رباني وإمام  
من الهداة . وجاء الشعراني فرأى أول مارأى والده الصوفي صاحب الخلوة  
الذي كان قليلاً من الليل ما يهجع ، وشاهد شقيقه العالم الصوفي الذي وهب  
نفسه لله . فكان يستغفر الله . مع كل نفس من أنفاسه . والذي ترك الحلال  
خشية الشبهات .

وعاش الشعراني طاهراً بين أطهار . قوته القرآن الذي حفظه قبل التمييز  
ولم يكن لهوهُ في طفولته عبث أطفال ، وشغب صغار . بل فتح عينيه ليقرأ  
ويقرأ في التفسير والحديث والفقه والأصول . وليجالس العلماء ويتلقى منهم



وينهل من معارفهم وهو في الثانية عشر من عمره .

ومن الله عليه فكان شيوخه جميعا في دراساته ممن جمعوا بين الدراسة العلمية ، والمناهج التعبدية الصوفية .

ولهذا رأينا الشعراني ينزع إلى التصوف ويتعجل السبل إلى أن يشق طريقه على أيدي أرباب الطريق . ورأينا شيوخه يطلبون منه التريث حتى يستكمل العلوم الظاهرية حفظا وفهما واستنباطا .

ولكن الشعراني كان من حيث لا يشعر صوفيا كاملا من صغره . فقد زاول التصوف عملا بفطرتة . فنجن نراه يكبح شهواته ويرد رغباته حتى عن الحلال المباح . ويقبل على ذكر الله ليله ونهاره حتى ليعلق في سقف خلوته جبلا يطوق عنقه متى جلس منذ العشاء حتى مطلع الفجر . ليأمن سنوات النوم وغفواته . فإن غلبه النعاس على أمره . صب على جسمه الماء البارد ولقد أخذ نفسه في العبادة منذ صغره بالأحوط والأكمل . والأحوط عنده اجتناب المكروه كأنه حرام ، والاعتناء بالسنة كأنها واجبة وهكذا .

والشعراني نفسه يفصل هذا المقام فيقول : أن من من الله عليه أن ألهمه مجاهدة نفسه من غير شيخ . لما تبجر في العلم ، ثم بشيخ ليساعده كما يقول على إزالة الموانع التي تعوقه عن العمل بما علمه .

ولترك الشعراني يحدثننا بأسلوبه القلبي الساحر راويا لنا قصة عباداته ومجاهداته :

« وتركت أكل لذيق الطعام . ولبست الخيش والمرقات نحو سنتين . ثم أكلت التراب لما فقدت الحلال نحو شهرين . ثم أغاثني الله تبارك وتعالى بالحلال المناسب لمقامي إذ ذاك . وكنت لا آكل طعام أمين ولا مباشر ولا تاجر ولا فقيه وغيرهم ممن في كسبهم شك . وضائق على الأرض كلها ونفرت من



جميع الناس فكنت أقيم في المساجد المهجورة . والابراج الخراب مدة طويلة  
وما رأيت أصني من تلك الأيام .

وكنت أطوى الثلاثة أيام وأكثر ثم أفطر على نحو أوقية من الخبز .  
وضعفت بشرتي . وقويت روحانيتي . حتى كنت أصعد بالهمة في الهواء إلى  
الصارى المنصوب على صحن جامع الغمري <sup>(١)</sup> فأجلس عليه في الليل والناس  
نيام . ثم إذا نزلت من السلم إلى الجامع . أنزل بجهد وتعب لعلبة روحانيتي .  
وطلبها الصعود إلى عالمها . فانه لا يثقل الانسان إلى الأرض إلا كثرة  
الشهوات . وهذا هو سبب تحريك الإنسان رأسه حال الذكر وتلاوة القرآن  
فكأن الروح تشتاق إلى القرب من حضرة ربها . إذا سمعت كلامه أو اسمه  
فتكاد تلتحق بمعالمها العلوى .

ولما غلب على طلب العزلة عن الناس . تنكرت مى قلوب أصحابي .  
ونفروا منى حتى كأنهم لا يعرفونى من ضيق وقتى عن مباسطتهم بالكلام  
اللغو .

وكنت إذا فتحت مجلس الذكر بعد العشاء لا أختمه إلا عند طلوع  
الفجر . ثم أصلى الصبح وأذكر إلى ضحوة النهار . ثم أصلى الضحى وأذكر  
حتى يدخل وقت الظهر . فأصلى الظهر . ثم أذكر إلى العصر . ومن صلاة  
العصر إلى المغرب . ومن صلاة المغرب إلى العشاء . وهكذا كنت على ذلك  
نحو سنة . وكنت كثيراً ما أصلى بربع القرآن بين المغرب والعشاء ثم أتجد  
بباقيه فأختمه قبل الفجر . وربما صليت بالقرآن كله فى ركعة . وكان نومي  
علبة تخطف رأسى خطفة بعد خطفة . وخفقة بعد خفقة وكثيراً ما يغلب على  
النوم فأضرب أنفادى بالسوط . وربما نزلت بثيابى فى الماء البارد فى الشتاء  
حتى لا يأخذنى النوم .

(١) الجزء الأول من المتن .



وهذه الأمور من قاعدة ما إذا تعارض عندنا مفسدتان وجب ارتكاب  
أخفهما مفسدة ، ولا شك في أن وقوف المحب بين يدي الله عز وجل في  
الظلام مع تألم جسمه بالضرب . أحسن عنده من نومه عن ربه عز وجل  
حال تجليه مع صحة جسمه ، كما أشار إليه قوله ﷺ « خصلتان مغبون فيهما كثير  
من الناس الصحة والفراغ ، ولكل مقام رجال ، ومن طلب نفيساً خاطر  
بنفيس فعلم أن المحب لله في وادي ، والمنكر عليه في واد آخر ، ومن طالع  
أحوال القوم في مجاهداتهم سهل عليه ما يكابده في نفسه ، فقد وقع للشيلبي أنه  
كان إذا غلب عليه النوم يضرب نفسه بقضيب الخيزران حتى ربما أفتى الحزمه  
في الليلة الواحدة ، وكان صلوات الله وسلامه عليه يقوم الليل حتى تورمت  
قدماه ، فأنزل الله عليه ، طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن  
يخشى : الآية . »

وهكذا كان الشعرائي صوفياً بغير شيخ .

ويمضى الشعرائي في وصف مجاهداته لنفسه ، وهي مجاهدات لا يطيقها  
إلا رجال الله . بل لا يصبر على الاستماع إليها ولا يجد مذاقها عند ذكرها  
إلا من أحبه الله وارتضاه لهداه . حتى يقبل قول الشعرائي أنه حينما طعم  
التراب لما افتقد الحلال في مطعمه . خاله تخماً وسمناً ولبناً .

أجل . من ارتضاه الله للهدى . وأنا قلبه . يرتضى هذا القول من  
الشعرائي ويفسره تفسيراً روحياً . أليس كل شيء نأكله أصلاً من التراب ؟  
ثم يعطف الشعرائي على ثمرة هذه المجاهدات في خلقه وحياته . فيقول .  
« أنه بلغ مقاماً في الزهد حتى لو أمطرت السماء ذهباً وصار الناس يثمهونه .  
لم يجد داعياً إلى أخذ شيء منه إلا لأمر مشروع . ولو مر على تلال الذهب  
والفضة من غير مزاحم عليها من أبناء الدنيا . ولا حساب عليها في العقبي لم  
يتناول منها ديناراً واحداً إلا لضرورة شرعية . فقد فنى اختياره مع الله .



وقدت أعضاؤه الشهوة للحصية أو الجاه . ثم حضوره دائماً بقلبه مع الله .  
أو كما يقول : ثم حضوري مع الله حال أكلتي ومشيروني كأنني في الصلاة ، .  
وبلغ مقاما في الخلق من صفافه شفقتة على جميع المسلمين شفقة قلبية حتى  
ليتألم كما يتألم أخوه المؤمن ، ويحس بشقائه كما يحس به ، ثم صعوده فوق ذلك  
درجات لتشمل رحمته الدنيا بأسرها ، إذ يقول .

« ثم سترى لعورات الناس وعيونهم حتى العصاة ، وذلك لون من الخلق  
والرحمة . لم يعرف لغير المتصوفة .

ثم تصدرة للدعوة والارشاد وإعلاء كلمة الله . حتى إنه ليقف في وجه  
كبار العصاة والولاة هاتفا بكلمة الحق ودعوتة . لأن روحه وقلبه عند الله  
لا عند الناس ، ولأنه جعل أخلافه ، مقاصد لا وسائل .

ثم ماذا ؟ ثم كما يقول : غيرتني على أذني أن تسمع زورا ، وعلى عيني أن  
تنظر محرما وعلى لساني أن يتكلم باطلا ، .

ذلك بعض ما أخذ الشعرا نى به نفسه من تعبد وخلق ، قبل تصوفه ،  
أو قبل أن يسلك الطريق إلى الله على أيدي شيوخه .



## شيوخه في الطريق

يقول شيخ المتصوفة القشيري ، في ترجمة أبي علي الثقفى ، لو أن رجلا جمع العلوم كلها وصحب طوائف الناس كلهم ، لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة ، من شيخ أو إمام أو مؤدب ناصح ومن لم يأخذ أدبه من أستاذ يريه ويريه عيوب أعماله ورعونات نفسه لا يحل الاقتداء به في تصحيح المعاملات .

ويقول الشعرائى . . . ولو أن طريق القوم يوصل إليها بالفهم لما احتاج مثل الغزالى ، وعز الدين بن عبد السلام ، إلى شيخ ، مع أنهما كانا يقولان قبل دخولهما الطريق ، من قال : إن ثم طريقاً للعلم غير ما بأيدينا فقد افترى على الله كذباً ، فلما دخلا الطريق كانا يقولان : قد ضيعنا عمرنا بالبطالة والحجاب .

والمتصوفة جميعاً قد أجمعوا على أن السالك لطريق الله لا بد له من شيخ مرشد ، ليكشف له الصحيح من الزائف ، فى الالهامات والواردات ، وليعلمه الأدب وطرائق التحلى به ، وليفصل له فى خواطر قلبه ، وليعصمه من الزلل وليداوى أمراضه النفسية ، من الكبر والرياء وحب الدنيا والحسد والغل والنفاق ، وأمثالها .

فالتصوف إلهامات ، تبدأ بعد نهايات أهل الفكر والدرس ، وقوامه معان واستنباطات ، وفهم فى أسرار القرآن ، فلا بد لرائده من مصباح وهادى والشيخ هو المصباح الهادى .

والتصوف آداب وتزكية نفوس ، وتطهير أخلاق ، ومجاهدات وتصحيح معاملات ، والشيخ هنا يثبت ويرشد ، ويلهم ويفصل الآيات . ثم يقول الشعرائى ، رداً على من يقول بأن السلف الصالح لم يعرف هذا اللون من التربية ، وهذا اللون الممثل فى الشيخ والمريد .



« وقد كان السلف الصالح لصفاء نفوسهم وقلوبهم ، لا يحتاجون في طريق العمل بعلمهم إلى شيخ لعدم الموانع ، وصار الناس اليوم لهم موانع لا تحصى لذلك وجب اتخاذ شيخ يرشد إلى طريق إزالة هذه الموانع ، من باب ما لا يتم الواجب إلا به . فهو واجب ، فإن اشتغل المرید بعد ذلك بالعلم ، أو صلى أو صام ، أو تروع أو زهد ، كان محفوظا من الرعونات التي تجرح مقام الاخلاص أو تحبب العمل .

وحقيقة الصوفي هو عالم عمل بعلمه ، على وفق ما أمر الله به ، وكانت صور مجاهداتي لنفسي من غير شيخ ، أنني كنت أطالع كتب القوم كرسالة القشيري ، وعوارف المعارف ، والقوت لأبي طالب المسكي ، والأحياء للغزالي ونحو ذلك . وأعمل كالذي يدخل دربا لا يدري هل ينفذ أم لا ؟ فان رآه نافذا خرج منه ، وإلا رجع من التعب . فهذا مثال من لا شيخ له فان فائدة الشيخ إنما هي اختصار الطريق للمرید ، ومن سلك من غير شيخ تاه ، وقطع عمره ولم يصل إلى مقصوده لأن مثال الشيخ ، مثال دليل الحجاج إلى مكة في الليالي المظلمة . .

ثم يقول « والشيخ في الطريق ضرورة لازمة ، بالغ ما بلغ علم المرید ، ولو حفظ آلاف الكتب ، فهو في هذه الحالة كمن يحفظ كتابا في الطب ولا يعرف عمليا منازل الدواء على الداء ، فاذا سمعه سامع وهو يدرس الكتاب قال إنه طيب عظيم ، فاذا رآه حين يسأل عن اسم المرض وكيفية إزالته علم حينئذ مقدار جهله . .

ويشترط في الشيخ كما يقول الشعرا في فوق تعبدته ووصوله ، أن يكون متبحرا في علوم الشريعة على اختلاف أنواعها عارفا بالأصول ومذاهب الأئمة الأربعة وغيرها ، بحيث يعرف أدلتها ومنازع أقوالها ، محيطا بأهم الكتاب التي يتفرع منها كل قول . .



ولما جاء ميقات الشعراني ليسلك الطريق إلى باريه وهاديه ، سلوكا كما  
اشترط المتصوفة ، وكما رسمه العابدون الواصلون الأولون ، أشار عليه ، أحمد  
البهلول ، صفيه ونجيه ، بأنه وإن كان قاب قوسين أو أدنى من النور الرباني  
والفتح الإلهي ، إلا أن القمم العالية لا يعبدها إلا الشيخ السالك المدرب  
الموهوب المأذون له .

واستقر كلام صفيه ونجيه في قلبه . فلما آب إلى منزله ، وانتهى من أوراده  
وتسبيحاته لم يجد قلبه خالصا . بل وجد كلام صفيه ونجيه أحمد البهلول يروده  
ويأخذ عليه مجامع قلبه . وخواطر نفسه . حتى إذا أسلمه الجهد إلى سبته من  
النوم . إذ بطيف تنلألاً أجنحته . ويفوح طيبه وعطره يهمس له في منامه  
بالإشارة والبشارة .

وإذا بالبشارة والإشارة تتحولان إلى كلام حلو جميل . لازم قلب  
الشعراني طوال حياته .

• إن أردت حياة قلبك الحياة التي لاموت بعدها . فأخرج عن الركون  
إلى الخلق ، وممت عن هواك وإرادتك . فهناك يحملك الله عز وجل حياة  
لاموت بعدها ، ويغنيك غنى لا فقر بعده ويعطيك عطاء لا منع بعده .  
ويريحك راحة لا تعب بعدها . ويعلمك علما لا جهل بعده ، ويطهرك طهارة  
لا تدنيس بعدها ، ويرفع قدرك في قلوب عباده ، فلا تحقر بعدها .  
قد ذهبت أيام المحن وجاءت أيام المتن ...

واستيقظ الشعراني عامر القلب بالأمانى ، فانطلق إلى شيوخ الطريق وهم  
بعض أصدقائه وبعض شيوخه ؛ ولترك الشعراني يحدثنا بحديثه القلبي عن  
انتقاله من مقامات العلم والزهد إلى مقامات الفتح والصفاء .

• ... ولقد اجتمعت بخلائق لا تحصى من أهل الطريق ، التمس لديهم  
المفاتيح والأبواب فلم يكن لي وديعة عند أحد منهم سوى ثلاثة : على



المرصفي ، ومحمد الشناوى ، وعلى الخواص . رضى الله عنهم .  
فسلكت على يد الأولين شيئا يسيرا ، وكان فطامى على يد على الخواص  
أعنى الفطام اليسير المعهود بين القوم ، وإلا فالحق ، أنه لا فطام حتى يموت  
الإنسان .

ومنهم عرفت يقينا أنه لا بد من شيخ فى الطريق ، كما قال موسى للخضر  
« هل أتبعك على أن تعلمنى بما علمت رشداً » .

وقد اعترف الإمام أحمد بن حنبل لأبى حمزة البغدادى بالفضل عليه .  
كما اعترف الإمام ابن سريج لأبى القاسم الجنيد .

وكان الغزالى يقول بعد اجتماعه بشيخه : ضيعنا عمرنا بالبطالة ، وهو  
حجة الإسلام ، وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وهو من هو ، يقول  
ما عرفت الإسلام الكامل ، إلا بعد اجتماعى على الشيخ أبى الحسن الشاذلى  
ولما اجتمعت بأهل الطريق . قالوا لى : اجعل أعمالك كلها مقاصد ،  
لتحضر فيها مع الله تعالى ، ولا تتخذها وسائل ، فتموت ولا تصل إلى  
مقصودك . فقربوا على الطريق ... ،



## الشعراني والخواص

الخواص رجل من رجال الله . وعلم من الأعلام الهداة ، ومحجة ومنارة من المنارات التي يهبها الله لعباده ، لتسكون للسالكين إليه ، نوراً وسلاماً .  
ولكل رجل من رجال الله مقام . ولكل رجل من رجال الله رسالة في الحياة . فمنهم من رسالته في التربية والتوجيه . القلم والبيان . ومنهم من رسالته الكرامات وخوارق العادات ، للتثبيت واليقين ، ومنهم من رسالته تربية المرئيين ، ومن رسالته تربية العارفين .  
والمرئيين للعارفين هم الكمل السادة ، ومنهم من يظهره الله . ومنهم من يحجبه ، ومنهم بين هؤلاء وهؤلاء .

فالخواص في الطريق ، وعند أهله ، كامل من السادة ، وإن جهله الناس . وإن أنكره العوام ، العوام رغم علمهم ، ورغم ما بأيديهم من أقلام وكتب .  
الخواص كامل من السادة ، وحجته على مكانته عند أهل الطريق معروفة واضحة . وحجته عند غيرهم أنه صنع العارف بالله . عبد الوهاب الشعراني .  
ولقد صنع الخواص عبد الوهاب الصوفي ، وعبد الوهاب خلد بتصوفه أي الجانب الذي تولاه الخواص ، وحسب الخواص هذا عند من لا يعرفه .  
ولقد عاش الشعراني طوال حياته الصوفية ، وعاماً من أوعية الخواص فالخواص إمامه وهاديه . وأستاذه وملقته ومربيه .

والخواص هو معراج الشعراني وسلمه الذي صعد عليه إلى أبواب الفتح وسموات المنح ومناطق الإلهام والنور . وليس في هذا ما ينقص الشعراني . بل في هذا مفخرته . لأن به كان خلوده .

وصلة الخواص بالشعراني هي آية الآيات على مقام الشيخ في الطريق ، وهي آية كونية على مقام العلم اللدني ، فلقد كان الخواص أمياً وكان الشعراني



علما ، ذلك هو حكم الظاهر أما حكم الباطن . فلقد كان الخواص علما وكان  
الشعراني أميا .

علم الأول كان الوهب . وعلم الثاني كان الكسب . والعلم الحقيقي عند  
الصوفية . العلم الذي يقول صاحبه بملء فيه إنه علمي . هو علوم الفتح لأنها  
خاصة بصاحبها . أما علوم الكسب . فهي ليست علوم صاحبها إنما هي علوم  
الكسب . أو كما يقول الخواص « علوم الرجل حقيقة » هو ما لم يسبق إليه  
وأما من كان علمه مستفادا من النقل . فليس ذلك له بعلم . إنما هو صاحب  
لصاحب العلم .

والشعراني يقول : إن من منن الله عليه . أن كان وصوله وفتحه على يد  
أمي لا يعرف القراءة والكتابة . ويقول في وصف هذا الأمي .

« رجل غلب عليه الخفاء . فلا يكاد يعرفه بالولاية والعلم . إلا العلماء  
العاملون . لأنه رجل كامل عندنا بلا شك . والكامل إذا بلغ مقام السكال  
في العرفان صار غريبا في الأكوان » .

ولترك الشعراني يحدثنا بحديثه الروحي العذب عن وصوله إلى معارج  
المعارف العلوية على يدي شيخه . ثم يحدثنا عن بحار علوم شيخه ومرشده .  
« وكانت مجاهداتي على يدي سيدي على الخواص ، كثيرة متنوعة ، منها  
أنه أمرني أول اجتماعي عليه . يبيع جميع كني والتصدق بثمانها على الفقراء  
ففعلت وكانت كتبها نفيسة مما يساوي عادة ثمانا كثيرا فبعتها وصدقت بثمانها . فصار  
عندي التفات إليها . لكثرة تعبي فيها وكتابة الحواشي والتعليقات عليها . حتى  
صرت كأنني سلبت العلم ، فقال لي اعمل على قطع النفاثك إليها بكثرة ذكر الله  
عز وجل ، فإنهم قالوا : ملتفت لا يصل . فعملت على قطع الالتفات إليها  
مدة حتى خلصت بحمد الله من ذلك .



ثم أمرني بالعزلة عن الناس مدة حتى صفا وقتي ، وكنت أهرب من الناس وأرى نفسي خيراً منهم فقال لي . إعمل على قطع إنك خير منهم . فجاهدت نفسي حتى صرت أرى أردلهم خيراً مني .

ثم أمرني بالإختلاط بهم والصبر على أذاهم وعدم مقابلتهم بالمثل ، فعملت على ذلك حتى قطعته ، فرأيت نفسي حينئذ . أنني صرت أفضل مقاما منهم ، فقال لي إعمل على قطع ذلك أيضاً . فعملت حتى قطعته .

ثم أمرني بالاشتغال بذكر الله سرأً وعلانية والإنتقطاع بالكلية إليه ، وكل خاطر خطر لي مما سوى الله عز وجل صرفته عن خاطري فوراً ، فكشفت على ذلك عدة أشهر

ثم أمرني بترك أكل الشهوات مطلقاً فتركها واكتفيت بما يسد الرمق ويمسك الحياة حتى صرت أكاد أصعد بالهمة في الهواء . وصارت العلوم النقلية تزاحم العلوم الوهبية ، ثم أمرني بالتوجه إلى الله تبارك وتعالى في أن يطلعني على أدلتها الشرعية ، فلما أطلعت عليها وصار لوح قلبي بمسوحاً من العلوم النقلية لاندراجها تحت الأدلة ، ترادفت على حينئذ العلوم الوهبية . ثم يتحدث الشعراني حديثاً طويلاً عن ترقبه للواردات والالهامات والفتح ، وكيف أمره شيخه الخواص بضروب من المجاهدات لصفاء قلبه واستكمال قطع علاقته الدنيوية . وأخيراً أخبره شيخه بأن بداية فتحه ستكون على شاطئ النيل في مكان حدده له . فإذا انتهى الشعراني من ذلك قال :

• فبينما أنا واقف على ساحل النيل عند ميوت البرابرة وسواق القلعة أنتظر وأترقب . إذا بأبواب من العلوم اللدنية انفتحت لقلبي كل باب أوسع مما بين السماء والأرض ، فصرت أتكلم على معاني القرآن والحديث . واستنبط منها الأحكام وقواعد النحو والأصول وغير ذلك من العلوم . حتى استغنيت عن النظر في كتب المؤلفين . فكتبت على ذلك نحو مائة كراسة ، فلما عرضتها



على سيدى على الخواص أمرنى بغسله . وقال هذا علم مخلوط بفكر وكسب  
وعلم الوهب منزهة عن مثل ذلك فغسلتها . وأمرنى بالعمل على تصفية  
القلب من شوائب الفكر ، وقال بينك وبين علم الوهب الخالص ألف  
مقام ، فصرت أعرض عليه كل شيء فتح به على وهو يقول أعرض عن هذا ،  
أو اطلب ما فوقه ، إلى أن كان ما كان ، فهذا صورة فتحى بهذه المجاهدة ،  
على يدى شيخى فالحمد لله رب العالمين .

ثم يصور لنا الشعرانى بعد ذلك فيما يصور ، من صلاته بالخواص ،  
بحر العلم الخاص بشيخه فيصفه ، بأنه مبسوط الرحاب عميق القاع ، أمواجه  
الكشف الصحيح ، وعبابه التعريف الإلهى .

ولقد غطس الشعرانى كما يقول فى بحر شيخه خمس مرات — ومن حق  
المريد أن يعترف من بحر المعرفة الخاص بشيخه — فلما هم بالسادسة استحال  
البحر حجراً .

وقد وجد الشعرانى فى كل مرة غاص فيها صيداً ثميناً ، صيداً هو خزانه  
من خزان العلم اللدنى .

فى المرة الأولى وجد خزانه على بابها قفل ، ففتحها بقول « لا إله إلا الله »  
فوجد فيها عجبا ، وجد العلوم التى برزت من اللوح المحفوظ إلى هذا العالم  
على اختلاف طبقاته ، من الصديقة الكبرى إلى آخر درجات الولاية .

وتلك الخزانه تشتمل على علوم لا تحصى ولا تدرك إلا بتعريف من الله  
عز وجل ، ووجد الشعرانى علوم تلك الخزانه مرتبة منسقة . وعلى كل  
علم إسمه .

ولقد أخرج الشعرانى كما يقول جميع تلك العلوم من الخزانه وجعلها  
من جملة ذخائره ومعارفه وأضافها إلى ما عنده .

فلما غطس فى المرة الثانية ، وجد خزانه أخرى على بابها قفلان . ففتحها



باسم الله ، فوجد فيها جملة من آيات القرآن العظيم من أول سورة الحاقة إلى آخر القرآن ، ووجد تفسير كل آية من تلك الآيات مكتوباً ، وهو علم لا تدركه العقول ، ولا يستفاد من كتب .

وأخرج الشعراني أيضاً علوم تلك الخزانة وأضافها إلى معارفه وذخائره وضمها إلى ثروته وكنوزه .

وهكذا يمضي الشعراني مصوراً لنا بحار شيخه ومعارفه اللدنية ، شارحاً للخزن المملوءة بالكنوز التي عثر عليها في تلك البحار ، وكيفية فتحها وما فيها من علوم استحوذ عليها واستفاد بها . وهو تصوير برعت فيه الأقلام الصوفية ومرن عليه الذوق الصوفي .

والمراد بالخزن وأقفالها وما كتب عليها وطرائق فتحها . هو فيما نعتقد الرمز إلى أسرار الذكر . وأسرار أسماء الله الحسنى . وفتوحات تلاوتها . والذكر هو سر التصوف وروحه ، كما أنه عندهم بداية الإلهام ونهايته وليس بصوفي من غفل قلبه لحظة عن ذكر الله ، أو التفكير في آياته .

وعلى هذا النهج تصوف الشعراني ، فكان تصوفه بداية خلوده ، وكان تصوفه فتحاً ربانياً كما يقولون . لعصره ، والعصور المتعاقبة .

فلقد ربي الشعراني آلافاً من المريدين والتلاميذ المعاصرين له . وجعل منهم مدرسة إيمانية تذكرك الله . وتدعو إلى هداة ، ولا تزال كتبه تربي وتمنح الهدى واليقين للآلاف من التلاميذ والمريدين .



## الشعراني في مدرسة خوند

استقر الشعراني بمدرسة أم خوند ، بعيدا عن مسجد الغمري المشحون  
بالدسائس والحسد ، وزالت أيام المحن جميعها ، وأقبلت أيام المن جميعها ،  
كما يقول الشعراني .

وفي مدرسة أم خوند ، دخل الشعراني دورا جديدا من أدوار حياته  
الكبرى ، وابتدأت الخطوط العريضة لمجده العريض ، ترسم وتتحدد ،  
وتأخذ ألوانها وتنجه إلى أهدافها .

ففي تلك المدرسة تصوف الشعراني . وسلك الطريق إلى الله ، وفيها  
كانت مجالسه العلمية والتعبدية ، التي غدت قبلة لصفوة العباد والعلماء ، يلوذون  
بالشعراني الإمام العابد العالم ، ينهلون من علمه ، ويعترفون من فيضه ،  
ويلتمسون النور في هديه وكنهه .

كما غدت تلك المجالس أيضا ، مهوى أفئدة الكبراء والأمراء وأصحاب  
الوجاهة ، يلتمسون لدى صاحبها شفاعته في أمور دنياهم ، أو توددا للجماهير  
وزلفى لديهم ، فقد أصبح الشعراني زعيما شعبيا مرهوب الجانب ، كما غدا  
صاحب صوت وكتابة عالية في مصر ، ومطاعة في استانبول ، عاصمة الإسلام  
ومقر الخلافة التي تدين لها مصر بالتبعية والولاء .

ولا يخلو الأمر أيضا من التماس بركات هذا القطب ، القطب الذي بزغ  
نجمه وتلألأ وأخذت الدنيا تمتلئ وتفيض بالأحاديث الساحرة عن  
نفحاته وعجائبه .



## الشعراني والخليفة

وجاء السلطان سليم خليفة العالم الإسلامي إلى مصر زائراً ، فكان يومه عيداً ، وكانت أيامه بمصر تاريخاً ، وكان القرب منه أو التشرف برؤيته عزاً وجاهاً ومطلباً عالياً .

وحف به الأمراء ، ولاذ به الكبراء . وهرع إليه العلماء والفقهاء ، يأملون في القبول ويرفعون آيات الولاء .

وبقي رجل واحد ، لا يسعى إلى أمير المؤمنين . ولا يمشي في الركاب ولا يحني رأسه . تلك الانحناءات الذليلة التي عرفت في المراسيم التركية .

وارتفع همس إلى السلطان سليم بتخلفه . وتضخم الهمس فغدا دويماً . فاسم الشعراني يزاحم الشمس ، فلا يمكن أن يختفي . ولا يمكن أن يتوارى ولا يمكن ألا يلمس الزائر العظيم تخلفه .

وحدثت الكرامة ، أو حدثت الآية التي طالما أكرم الله بها رجاله وعباده الذين عفوا عن الدنيا ، فسعت إليهم الدنيا .

أجل لقد سعت الدنيا . سعت الخلافة التركية بجلالها وهبتها إلى الرجل العابد القانت المتواضع المعرض عن الدنيا وأساليب الحياة .

سعى الخليفة العظيم ، إلى الصوفي العظيم ، فكان ما بينهما رمزا إلى الدنيا والآخرة ، وبين دهشة الحاشية وعجب الأمراء وذهول العلماء والفقهاء التمس السلطان سليم طريقه إلى الشعراني .

وكان يوماً عظيماً تاريخياً للرجلين الكبيرين ، ومن هذا اليوم لم يستطع حاكم في القاهرة أن يعصى للشعراني أمراً أو يرد له طلباً .

وكان القضاء في مصر خلال تلك الحقبة من التاريخ . للقاضي محي الدين



عبد القادر الأزبكي ، وكان في طبعه حدة فاصطدم بنائب السلطان سليم على مصر فأهدر النائب دمه وخصص جائزة لقتله .

واختفى القاضي طويلاً حتى إذا ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وضائق به حياته انطلق إلى الشعراني شاكياً لا نذاً وتعهد للشعراني أن يقيم مسجداً لله . إن أنقذه الله من شر خصمه ونجاه من تلك المحنة .

وابتسم الشعراني وتناول عوداً رفيعاً من الأرض وقال له اذهب فالق الحاكم بهذا العود ، ولا تخشى سوءاً ولا شراً .

فتردد القاضي وأذهله هذا الأمر ، فقد تشفع له الأمراء والسادة فلم تقبل شفاعتهم فكيف يستجيب الحاكم بعد ذلك ، ولا شفاعاة اليوم ، ولا وساطة ، الا عود صغير من الشيخ .

ولاحظ أتباع الشيخ ترده فثار ثائرم ، وهتفوا به اذهب وسنرى عجايب فالشيخ لا يمزح وان بدا الأمر شاذاً غريباً ، وأسرار الشيخ ونفحاته لا تنسرك ولا تجحد ، ومضى القاضي على وجل للقاء الحاكم حتى إذا دنا من مجلسه ألقى العود أمامه . وبين عجبته ودهشته ، خف الباشا لاستقباله والاحتفاء به ، وأعادته الى منصبه وأصدر أمراً بالعفو عنه .

تلك رواية كتب المناقب ، وفي رواية أخرى ، أن الشعراني التمس من السلطان سليم العفو عن القاضي المهدر الدم . فأجاب طلبه وقبل شفاعته .

وسواء كانت الرواية الأولى أو الثانية ، فقد غدا القاضي يدين بحياته للشعراني ، ويدين أيضاً ببناء مسجد لله يخصص للشعراني ولجالسائه العلمية والتعبدية وابتاع القاضي أرض فضاء في أطراف حي باب الشعرية ، ليقيم فيها المسجد الذي وعد به ، وقبل أن يبدأ القاضي في البناء عدا أحد الأمراء الأتراك على الأرض فاغضبها واعتزم أن يقيم عليها بيتاً له .



وتصدى للامير التركي رجل من أصحاب الاحوال ، فأذره بسوء  
العاقبة إن لم يترك هذه الأرض التي قدر لها أن تكون مسجداً لله ومقرأ  
للشعرانى حياً وميتاً

وضحك الامير التركي ، وأعلن لحاشيته وسط السخرية اللاذعة ، أنه  
لا يؤمن بالمجازيب ولا يعتقد في الكرامات . وأن الاهتمام بمثل هذه  
الأمور صغار لا يليق بالسادة الأمراء .

ومضى ركب الحياة . فإذا بالشلل يأخذ جسد الامير بعد أيام . ثم يسلمه  
للوت . ولم يمض أسبوع واحد على هذا العدوان .

وأمر القاضى محي الدين إلى الأرض . فشد عليها مسجداً عظيماً فخماً  
واسع الرحاب . هو المسجد الذى عرف فى التاريخ باسم مسجد الشعرانى  
وابتنى فى المسجد زاوية انتقل إليها الشعرانى بأهله . بعد أن جعلها القاضى  
وقفاً عليه وعلى أسرته ، وغدت الزاوية بعد ذلك جزءاً من تاريخ الشعرانى  
لأن بها كانت أعظم أيامه . ولأنها غدت من أعظم مراكز العلم والتعبد فى  
العالم الاسلامى .

وحفر البناؤون كثيراً من الآبار لهذه الزاوية ولكنهم لم يعثروا على  
الماء فطلب الشعرانى من شيخه نور الدين الشونى ، حلاً لهذا الأمر .  
والشونى يتحدث عنه الرواة بأنه . كان يجتمع برسول الله صلوات الله عليه  
بقظة ومناماً .

وبعد أيام جاء نور الدين الشونى ليقول للشعرانى : بأن البئر يجب أن  
تحفر فى مكان حدده وعينه . وقال إن هذا بناء عن إذن من رسول الله  
صلوات الله وسلامه عليه .

وحفرت البئر . فكانت لها سلسلة عذبا ، حتى لقد تطايرت الشائعات  
بأن ماءها يتصل ببئر زمزم وأقبلت الجماهير عليها التماساً لبركات مائها وأسراره



## زاوية الشعراني

لعبت الزوايا والمساجد في تاريخ الإسلام دوراً كبيراً خطيراً ، فقد كان المسجد مكتبة ومدرسة ومصلى ، كان معهداً لتربية العقول ، ومعهداً لتطهير القلوب ، بل لقد كان مسجد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في المدينة ، كلية حربية يتعلم فيها الصحابة تحت رعاية نبيهم القتال ، من ضرب الرماح إلى رشق السهام .

والذين تربوا تحت ظلال المساجد في تاريخ الإسلام ، هم علماءؤه ، وفقهاؤه ، بل وفرسانه ومقاتليه أيضاً .

ولقد خطا أحمد بن طولون خطوة أخرى في واجبات المساجد ، فألحق بمسجده الكبير صيدلية تداوى المرضى ، وتوزع الدواء بالمجان على الفقراء والمحتاجين ، وبذلك غدت المساجد محور القوى الروحية والفكرية والبدنية في العالم الإسلامي ، وهل ينسى تاريخ الإسلام ، بل تاريخ الحضارة العالمية الأعمال الخالدة ، التي حققها المدارس ، الكاملة ، والنظامية ، والطولونية والأزهر .

فن تلك المساجد . شعت أنوار المعرفة ، التي حملت للعالم أركى الحضارات وأظهر الدراسات . أنوار المعرفة التي صاغت العقول الإسلامية وأضاءت لها الحياة أكثر من عشرة قرون ، ومكنت للقوة الإسلامية في الأرض حتى كانت . وحدها صاحبة القول الفصل في شئون الكوكب الأرضي .

وزاوية الشعراني ، كانت في القرن العاشر الهجري منافساً خطيراً للأزهر بل لقد كانت الناحية العبدية فيها ، أكبر مما يطبق الأزهر ، وكانت سبل العيش لطلابها أيسر وأهنأ ، وزاوية الشعراني جزء لا يتجزأ من تاريخه . بل إن تاريخه ليفقد جانباً مضيئاً ساحراً لو أهملنا الحديث عنها .

والحديث عن زاوية الشعراني ، يتفرق ويتشعب لمن يريد أن يحيط



بألوانها وصورها ، بل هو حديث في حاجة إلى كتاب خاص ، ودراسة  
مستقلة ، فلقد نهضت تلك الزاوية بما يساوى جهد وزارتين من الوزارات  
التي نعرفها . أعني وزارتي الشؤون والمعارف .

ونحن هنا نحاول أن نعطي صورة سريعة لحياة الشعرائى داخل زاويته ،  
وصورة سريعة لأثرها فى المجتمع المصرى .

حول الشعرائى الزاوية التى بناها له القاضى محى الدين ، إلى رباط للعباد  
ومدرسة للعلم والتعليم ، وزاوية للصوفيين المستجدين ، ومسجد للصلاة وإقامة  
الشعائر . وتكية للفقراء والمحتاجين ، وكان هو قطب الرحى لتلك الحركة الدائمة  
واقد أوقف عليها القاضى محى الدين ، أوقافا وأرزاقا ، كفلت الحياة  
لموظفيها من المؤذنين والفقراء ، والأئمة والخطباء .

ولكن الحياة قد اتسعت داخل الزاوية . فقد كفل اسم الشعرائى  
لزاويته مكانة عالية فأقبل عليها الراغبون من كل حذب ينسلون .

أقبل عليها الأمراء والسادة ، يوقفون عليها أملا كهم وأموالهم ،  
ويقدمون إلى طلابها المنح والهدايا ، على اختلاف أنواعها .

وأقبل عليها آلاف المرئيين والطلابين للعلم من الفقراء الذين أعسروا  
فلم يستطيعوا طلبا للعلم ، بل لم يستطيعوا الحياة الكريمة ، فكفل لهم الشعرائى  
داخل زاويته العلم ، العلم بشقيه من تثقيف وتعبس ، كما كفل لهم الحياة  
الكريمة بأوسع معانى تلك الكلمة .

حتى لقد أفسح للمتزوجين منهم مكانا فى زاويته . يقيمون فيه مع أولادهم  
وزوجاتهم طاعمين كاسين متمعين ، لا يحملون من هموم الرزق كثيرا ولا قليلا  
ماداموا قد انقطعوا للعلم . وما دامت أخلاقهم وعباداتهم مما يرضى عنه الله  
ولقد بلغ عدد طلاب الزاوية فى أول أمرها مائتين بينهم تسعة وعشرون كفيفا



ويحدثنا التاريخ حديثا عجبا عن ميزانية تلك الزاوية . وعن الخيرات  
والنعيم التي تجرى في ساحاتها فلقد كان يعد لطلابها من الخبز كل صباح  
أردبا وثلث الأردب من أنقى أنواع القمح .

أما ميزانيتها عن عام : فعشرة قناطير من عسل النحل . وعشرين قنطارا  
من عسل القصب . وأربعين أردبا من الفول ومن الكشك سبعة . ومن  
الأرز مثلها . ومن البسلة والعبس خمسة وعشرين أردبا... وهكذا .

فإذا أقبل العيد . عيد الفطر . كانت ميزانيتها من الكعك خمسة أراذب  
غير الهدايا . ومن الجوز والبندق والخروب والتمر والزبيب والتين ما قدر  
بخمسة قناطير . ومن الفواكه شيء لا يقع تحت حصر . ويكفي أن نذكر أن  
ميزانية الزاوية من البطيخ في العام كانت أكثر من ألفين .

ولم يقتصر الأمر على هذا النعيم فقط . بل شملت رعاية الشعراني  
مريديه وتلامذته في أوسع الآفاق . فهم أبناءه وأحبابه في الله ومن حقهم  
عليه أن يدبر أمورهم كافة . ومن تدبير أمرهم أن ينظر في أمر استكمال  
دينهم . ومن كمال الدين الزواج . ولهذا زوج الشعراني في زاويته أربعين  
رجلا من مريديه قام عنهم بالمهر ونفقات الزواج . وحرص على تزويد  
زوجاتهم بكل شيء يخطر على العقل من شؤون النساء ولو أزمهن . حتى اللبان  
الشامى والحجازى والشمع والخضاب وغرائب أنواع الزينة وألوان العطور  
وأدوات النظيرة والتجميل .

ومن كمال الدين الحج إلى بيت الله . ولهذا أرسل الشعراني أفواجا من  
تلامذته إلى الأرض المقدسة باذلا في سبيل راحتهم والعناية بأمرهم مثل  
ما بذل في أمر زواجهم . من الاهتمام العجيب بكل دقيقة وصغيرة مما يدل  
على شفافية ذلك الروح الكبير . الذى شمل حبه وحنانه كل من أحاط به  
أولاذ برحابه .



ولم تقف مكارم الشعراني عند هذا الحد . بل تحدثنا كتب المناقب بأنه كان يقوم بتزويد العلماء والفقهاء والمشايخ في مصر وغيرها بالغذاء والكساء والماء . حتى لسكان كل فقير من أهل العلم أمانة في عنقه . ويحدثنا الشعراني بأنه قد كسا بالثياب عدداً لا يحصيه عد ولا يحيط به حصر من الشيوخ الفقراء آلافاً مؤلفة .

أما ضيوف الشعراني ورواده في زاويته ، والذين قدروا في كتب التاريخ بحوالي مائة زائر يومياً فقد كان الشيخ معهم سخى اليد سخى القلب سخى العاطفة .

ومع هذا العبء العظيم ، وهذه النفقات الطائلة التي حملها الشعراني ، لم يعض نبع الخيرات في زاويته ، بل كان دافقاً جياشاً دائماً ، وفي وسط هذا النعيم والخير المقيم ، كان الشعراني يعيش يومه على جرعة من ماء وتمرات يقمن صلبه

تلك هي الناحية المادية من زاوية الشعراني ، أما الحياة الروحية فيها ، فهو الوجه الأكثر وضاءة وإشراقاً ، فلقد تحدث مؤرخوه من معاصريه بأن زاويته كانت أعظم المنارات العلمية والتعبدية في العالم الإسلامي خلال القرن العاشر الهجري .

فلقد كان الشعراني أوسع أهل عصره علماً ، وأعلام كعبا في التصوف والنفحات اللدنية . كما كان ذروة في التعبد والخلق لا تطاولها ذروة ، وبتلك العملاقة العلمية والروحانية التعبدية ، طبع الشعراني زاويته وربى مريديه وتلاميذته ، فدرسوا على يديه العلوم الشرعية على اختلاف أنواعها وتلقوا منه المعارف الصوفية على اتساع آفاقها وشمولها ودقائق أسرارها ومكارم أخلاقها .

وكان قراء القرآن الكريم فيها ، يواصلون القراءة ليلاً ونهاراً . حتى



لا تخلو الزاوية دقيقة واحدة من قراءة القرآن .

وبجوار قراءة القرآن ، المجالس العلمية ، فلا يفرغ قارئ في الحديث ، حتى يبدأ قارئ في التفسير ، وما ينتهي حتى يشرع ثالث في قراءة التصوف ولا ينتهي حتى يليه قارئ في الفقه . وهكذا آناه الليل وأطراف النهار من غير انقطاع .

ويحدثنا المناوي وصاحب طبقات الشاذلية : بأن الناس كانوا يسمعون لزاويته دويا كدوى النحل ليلا ونهاراً .

وبجوار هؤلاء وهؤلاء ، كان العباد والذاكرون المنقطعون للذكر والعبادة حتى ليقول الشبلي المؤرخ : بأنه لم ير في مشارق الأرض ومغاربها خيراً من زاوية الشعراني ، علماً وفضلاً وتصوفاً وأدباً .

ولقد أخرجت تلك الزاوية الخالدة أعظم علماء القرن العاشر الهجري وأكبر متصوفيه . لقد كانت زاوية خالدة ، وكانت زاوية الخالدين .



## إلى المثل الأعلى

حدثنا الشعراني عن سلوكه إلى الله على يد شيخة الخواص . وكيف  
أجلسه الخواص في محارب الطهارة والتعمد، وأخذ عليه العهد ولقنه الذكر.  
وأعطاه الورد وأخلاه عما سوى الله وانبأه بأن الفتح الإلهي والهبات  
الربانية اللدنية ستكون بدايتها في مكان معلوم مقدر بروضة المقياس على  
شاطئ النيل .

ثم حدثنا عن أحاسيسه القلبية في أيام ترقبه وانتظاره ، وكيف تسلت  
العلوم الوهية إلى قلبه فكتب منها ما شاء الله أن يكتب ، ثم عرضها على  
شيخه فأنبأه بأنها لا تخلو من علوم ظاهرية ، وطلب إليه محوها ، وانتظار  
علوم أكثر صفاء وثباتاً .

وتكرر الأمر بينه وبين شيخه ، حتى جاء الفتح الإلهي ، وكانت بدايته  
أن ألهم علم آداب العبودية في يوم الاثنين السابع عشر من شهر رجب  
سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة للهجرة .

فلما عرض ما وهبه الله له في هذا اليوم على شيخه ، قال له . وتم أمرك  
وعلا شأنك ، وروى قلبك ، فابق على ما تكتب ، فسجل الشعراني فتوحاته  
الأولى في كتابه . الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية .

وتوالت المنح والفتوحات على الشعراني ، فقد تم أمره وعلا قدره  
وروى قلبه ، وأن له أن يهب الفكر الإسلامي . شيئاً مما منحه الله فانطلق  
ينثر علومه في مجالسه العلمية ، ويجعل من زاويته منسرة عالمية . ومحفلاً من  
محافل العلم الكبرى ، ومنها عذبا سلسبيلا للأمة المحمدية .

ثم أقبل الشعراني على التحرير والتأليف ، في شتى فروع المعرفة حتى  
وهب المكتبة الإسلامية أكثر من مائة كتاب في التصوف والفقهاء والأصول  
والتفسير والحديث والنحو والطب والكيمياء والأخلاق وغيرها من ألوان العلوم



والمعارف ، وقد استغرق بعضها خمسة مجلدات : ووقع الكثير منها في مجلدين وأكثر هذه المؤلفات لا يزال محفوظا وموزعا على دور الكتب في أرجاء العالم .  
ولقد أحصى المستشرق « بروكلان » أكثر من ستين كتابا مخطوطا متناثرة في دور العلم العالمية ، ويذكر لنا على مبارك باشا ، بأن الكتب التي رآها للشعراني أكثر من سبعين كتابا .

وبلغ الشعراني في عصره مكانة علمية . حسبنا في الدلالة عليها أن أحد شائفيه كتب سؤالا عن فقرات وردت في كتاب « العهود الحمديّة » للشعراني وقدمه إلى شيخ الإسلام الفتوحى الحنبلى . فامتنع الشيخ الفتوحى عن التعليق عليه . قائلا : إن الشعراني قد أحاط من العلم بما لم نحط به . وقد قرأ من الكتب ما لا يعرف له اسما ، وأنه لو ادعى تأليفها ما وجد في مصر منازعا . تلك لمحة عن مكانة الشعراني الذى قال له شيخه الأكبر على الخواص « تم أمرك وعلا شأنك . وروى قلبك »

وكان من تمام الأمر للشعراني . أو من تمام المقابلة في حياته . أن مكانته العلمية . مشتهرا جينا إلى جنب مع مكانته الدنيوية .

فقد أصبحت زاويته تسهم بنفوذها في توجيهات الحكم في مصر . بل وفي الإمبراطورية التركية بأسرها .

وبلغ من اعتزاز الشعراني بمكانته الدينية . أن يأتى إليه الوزير الأعظم على باشا قبيل سفره إلى تركيا . ليقول له ونحن مقربون للخليفة فهل لك من حاجة ترفعها إليه ، فيهتف الشعراني غاضبا « ألك حاجة عند الله ؛ إننا مقربون إلى حضرته »

ونرى حاكما من حكام مصر . هو الأمير حسن بك صنجق يتلمذ على الشعراني ثم يقبل على حبه ويقبل على درسه . حتى يلازمه في زاويته ليلا ونهارا تاركا الأمانة والحكم .



ولكن الشعراني لا يرضى عن تلك الصحبة . لأن فيها إستخفافاً بمصالح  
الرعية وهى أمانة فى عنق الأمير . وواجبه الأول أن يتخصص لها . ويتفرغ  
لشؤونها .

ولكن حب الأمير لشيوخه الشعراني . كان أكبر من حبه للإماراة  
وجاهاها . والحكم وسلطانة ونفوذه . فعز عليه وكبر لديه أن يفارق الشعراني  
ومجالسه وما فيها من أنس وعلم وتقوى ، فاعتزم أمراً عجباً . سره الأكبر  
يلتمس لدى التصوف والمحبة فى الله .

وفى اليوم التالى تجلى هذا الأمر . فمع الشمس فرق الأمير أمواله .  
وأعتق عبيده . وأوقف أملاكه على وجوه الخير وأستبقى من هذا الثراء  
العريض رخام بيت من بيوتاته . وكان تحفة نادرة . وقليلاً من المال . أما  
الرخام الفخم النادر والمال القليل . فقد اعتزم الأمير أن يبني بهما ضريحاً  
ومزاراً لشيوخه الشعراني وفاء وحبا .

وأقبل الأمير على أستاذه . فقيراً متجرداً ليسلك على يديه طريق الهدى  
واليقين . بلا عائق من حكم ولا مانع من أماراة .

وبكى الشعراني . فيها هو رجل يترك من الدنيا شيئاً لم يتركه الشعراني  
ويزهد زهداً يتضامل حيماله كل زهد . ثم طلب من تلميذه أن يترث قليلاً  
فى بناء الضريح حتى إذا أحس الشعراني بأن ساعة صعود روحه إلى بارئها  
وهاديا قد دنت طلب من الأمير أن يقيم الضريح الذى اعتزم إقامته .  
ولما شيد الضريح وارتفعت منارته . وانتهى البناءون من آخر قطعة فيه  
فى نفس اللحظة . انعقد لسان الشعراني وجمدت أطرافه فقد استوفى أنفاسه .

وكانت وفاته فى الثانى عشر من جماد الأول سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة  
للهجرة وكانت آخر كلماته . أنا ذاهب إلى ربى الرحيم الكريم .



## رسالة التصوف

### الشعراني . والروح الصوفي

تكلمنا عن حياة الشعراني وما اتصل بها أحداث تاريخية ، ونحاول الآن أن ندرس ما تركه للفكر الإسلامي من علوم ومعارف ، وما تركه للروحانية الإسلامية من جولات صوفية ، ومعارف لدنية ، وما كان لهذا وذاك من أثر في توجهات الحياة الإسلامية العقلية والعلمية .

والشعراني لسان صدق من أئمة التصوف التي أبدعت آياته الكبرى ومنازة من مناراته العظمى . التي قامت على مفترق الطرق الروحية والعقلية ترشد السائرين إلى الله ، وتهدي الحائرین المتعبين إلى شواطئ السلام واليقين وله بعد ذلك في التصوف رسالة ما أحسب أن أحداً — باستثناء الغزالي حمل أعلامها أو جاهد في سبيلها . مثل ما حمل الشعراني وجاهد .

وتلك الرسالة ، هي تنقية التصوف من الدخيل والدخلاء ، وتجليته نهجاً إيمانياً تعبدياً خالصاً لله ، هدفه الطاعة الكاملة ، والعبودية الصادقة ، والمحبة الروحية بأنوارها وآدابها السامية لا يعرف الجدل ولا الحوار ، ولا يقر الشطح والسمج الفلسفي ،

وربط المعارف الصوفية للدنية ، بالعلوم الإسلامية الظاهرية ، والخروج بالامة الإسلامية من الجدليات والخلافات ، إلى روح الدين وجوهره ، إلى اليقين الثابت ، والعمل الصالح والوحدة القلبية والفكرية . وإقامة أسس الحياة على الرحمة والمحبة لا على الشقاق والجدل البغيض .

والشعراني كسكل المتصوفة . مفتاح شخصيته في تصوفه وروحانيته ، فالشخص الصوفية . قد يتراون أشباحاً باهتة الظلال للعين المادية ، وقد



يتراون في عدسات الباحثين المنطقيين في أردية السداجة والبساطة حينما .  
وفي أردية الغموض والابهام أحيانا .

ومرد هذا ارتفاعهم الروحي الهائل عما ألف الناس واعتادوا من ألوان  
وأخلاق وعما ألف الناس واعتادوا من معارف نظرية وعقلية ، ولهذا  
تخطهم العين المجردة ، كما تخطهم العدسات للمادية .

إننا في حاجة إلى عدسات روحية خاصة حينما نتعرض لتلك الأرواح  
كما نحتاج إلى مكبرات خاصة حينما نتطلع إلى نجوم السماء .

فقوة المتصوف العظمى ، إنما تكمن في روحه . فكلما اقتربنا من دائرته  
الروحية تجلت لنا آياته . وتجلت لنا شخصيته وتجلت لنا عملاقته الروحية  
والعلمية . لأنهم شخوص كونهم العقيدة وصاعتهم الروحانية ولهذا نتقرب  
من فهمهم ونقترب منهم ، كلما اقتربنا من التصوف ومن فهم التصوف . .

واذن فلا بد لدارس شخصية الشعراى من أن يتحدث عن التصوف ،  
فالحديث عن الروح الصوفى . هو المدخل لدراسة كل متصوف اسلامى .

ودارس التصوف الإسلامى ، يرى نفسه بادية بده ، وسط أمواج  
صخابة ، وبحار زاخرات . بل وسط دوامة مفرغة الحلقات ، لا يجد لعبابها  
شاطىء ، ولا من نوها عاصم .

فقد امتلأ موكب التصوف بالدخلاء من كل نحلة ولون ، كما دست على  
المعارف الصوفية عقائد تكاد تتمثل فيها عقائد الكوكب الأرضى كافة .

وطريق البحث بعد ذلك ليس معبدا بل ليس آمنا . فالباحث يجد أمامه  
مزاجا عجبا من الأخبار المشابهة المتضاربة التى امتزج فيها الحصى بالجواهر  
وامتزجا أحيانا حتى يحتاج الدارس إلى معمل فكري للصهر والتمييز .

وما يجده الباحث من حر الجواهر إنما يجده متمائرا لا يكون وحدة



فكرية ، ولا يقيم ميحثا علميا متناسقا . فهو بحاجة إلى صبر مدده من عند الله ، حتى يستطيع أن يؤلف بين هذه الأجزاء ويرد كل جوهر إلى عقده ، حتى يستقيم البحث ، وحتى يتجلى جمال اللؤلؤ الممكنون .

وكثيراً ما يجد الباحث نفسه أمام ألوان فلسفية مادية . وألوان من التأملات الجاحمة ، وألوان من الشطحات المضللة ، أدخلت على التصوف ، وهي ليست من روحه ولا من عقيدته . وأعسر من هذا وأشد قسوة . أن هذه الألوان قد دسها المغرضون والمزيفون في كتب الأئمة والقادة من رجال التصوف . ومشى هذا التزييف على التاريخ حتى أصبح جزءاً منه .

وكتب المناقب التي عنيت بالتصوف ورجالها كثيرة ومتنوعة ، ولكن كثرتها لا تهدي السبيل ولا تنير الطريق . إذ أنها طوائف من الأخبار تسودها المبالغة حيناً . والاضطراب أحياناً ، ويجرى فيها الدس والتزييف تارة والاهام والغموض تارة أخرى .

وتأتى بعد ذلك دراسات المستشرقين . الذين ساهموا بقصد أو بغير قصد في تشويه التصوف وتغيير وجهه . لأنهم اتجهوا بدراساتهم إلى ألوان من التصوف لا تعتبر من صميمه ولا تعبر عن شخصيته ، اتجهوا إلى السبجات الفلسفية ، والشطحات القلبية ، وهو لون دخيل على التصوف لحق به في إحدى مراحل المتأخرة ، حينما انتقل من القلوب إلى العقول ، ومن التعبد إلى التأمل حينما أصبح الفيلسوف لا الإيمان طريقاً إلى الله ، وطريقاً إلى المعرفة . وحينما انصرف بعض المنتسبين إلى التصوف إلى نظريات في الوجود ونظريات في المعرفة لا يعترف بها الإسلام ولا ترضى عنها الأهلان الصوفية المؤمنة .

ثم جاءت في أعقابهم كتب المؤرخين المعاصرين من رجالنا . فإذا بهم يجرؤون في أعقاب أساتذتهم من رجال الاستشراق ، وإذا بهم يقعون كما وقع أساتذتهم في أحابيل خصوم التصوف القدامى الذين دسوا عليه



وزيفوا ألقانه . وإذا بهم أيضاً يعنون بالشكليات ويعرمون بالشاذ من الآراء ويولعون بابرز الكلمات المهزوزة . كما أولع الأوربيون بها من قبل . الكلمات المهزوزة التي استنبطوا منها تارة فسكره الحلول والاتحاد . وتارة نظرية وحدة الوجود . وإذا بهم يتحدثون أيضاً كما تحدث شيوخهم عن الصلات بين التصوف الاسلامي والوثنية الهندية . والتصوف المحمدي والروحانية المسيحية .

ودارت أقلامهم في هذا المجال وتشعبت بهم السبل . حتى أسلمتهم إلى نظريات وصور . قد تمتسب إلى كل نحلة عرفها العقل الإنساني ما عدا النهج الرباني الإسلامي .

وأغفلوا تماماً جوهر الإسلام وروحه . وهما أبعد ما يكونان عن هذه الألوان والصور . ولم ينظروا إلى منابته المحمدية . وعقيدته القرآنية وأخلاقه المثالية وتعبداته السامية . وتراثه في المعرفة . وهو أصدق صور الإيمان المحمدي . وأعلى ذرى الهدى القرآني .

فهى إذن محاولة جريئة وشاقة تلك التي نحاولها، إذ نحاول تنقية التصوف مما دس عليه وألحق به . وتمزيق الحجب التي توارت خلفها أنواره واختفى في طياتها بريقه وسناؤه . حتى نجلوه بانبا إسلاميا خالصا . كما عرفه الأولون الذين عاشوا في محاربه ومعابده . وأنواره ومعارجه .

ولقد شهد التاريخ محاولات سابقة في سبيل هذه الرسالة العليا ، فلقد قام حجة الإسلام الغزالي في القرن الخامس الهجري ، بحركته الإصلاحية الكبرى في سبيل تجديد التصوف وتنقيته من الألوان الفلسفية التي دسها عليه خصوم الإسلام من أصحاب المذاهب الباطنية ، ومن الدجل الشعبي الذي أدخله عليه جهله العوام وبعض طوائف المتحررين من الأخلاق ،



كما قام بهذه الرسالة العظمى بقوة ونجاح القطب الشعراني في القرن  
العاشر الهجري .

ونحن اليوم في حاجة ملحة إلى تصفية جديدة ، وتنقية جديدة ، وحركة  
تجددية أخرى . نحن في حاجة إلى جهود متوافرة لدراسة التصوف وتنقيته  
من الشوائب ، وما زور التاريخ ، وما أدخل الرواة ، وما دس عليه ونسب  
إليه وحف بروحه وتعلق بأرديته حتى نزده إلى فطرته الأولى فنرده إلى  
القلوب إيماناً ، وإلى الأخلاق طهارة ، وإلى المثالية عنواناً ورمزاً ، بل إلى  
الإنسانية بأسرها سلاماً وسعادة وأمناً .

وإني لكبير الأمل ، في أن تكون تلك الدراسات التي نقدمها هنا ،  
بداية موفقة لتلك الحركة المباركة . أو على الأقل منظاراً يرشد إلى طريقها ،  
ويهدى إلى سبلها .



## التصوف الإسلامي

### والمعارف العالمية

والتصوف الإسلامي هو أعلى قمة حامت حولها المحاولات العالمية  
للإكمال الروحي والمعارف الدنية حامت حولها الجهود العالمية ، ولا أقول  
بلغتها ، لأن سبيل الإكمال الروحي قد تعددت بتعدد الفلسفات وتعدد الوسائل  
والغايات ، فقد حاول قوم أن يقبسوا من نور هذا الإكمال بالتصفية والتخلية ،  
1  
2  
3  
كرجال الفلسفة شراقية ، وحاول قوم أن ينالوه بالنسك والطهارة كزهاد  
اليوجا الهندية . وحاول آخرون أن يبلغوه بالاستغراق والتأمل ، كأصحاب  
المذاهب النظرية والفلسفية .

وعدة هؤلاء وهؤلاء لبلوغ هذا الإكمال ، جهد بشري وسبل ابتدعوها  
ومذاهب اعتنقوها وعاشوا لها ، وهي وان وصلت بهم إلى ألوان من  
هذا الإكمال . إلا أنها ألوان مستعارة لا أصيلة . لأنها منحرفة الغاية . وان  
استقامت الوسيلة .

وقد ترقى أرواح هؤلاء وهؤلاء . حتى تأتي بما يشبه الإلهام ، وبما يشبه  
الخوارق والكرامات . إلا أنها قد تضل وتشقى ، لأنها اقتبست هداها من  
داخلها . ولم تقتبس هداها من خالقها وموجدها .

أما التصوف الإسلامي ، فقد تتشابه وسائله في الزهد والنسك والتصفية  
والتخلية والتأمل والطهارة ، مع هؤلاء ومع هؤلاء . ولكنه تشابه عرضي  
وتقارب شكلي . لأن التصوف الإسلامي ليس مذهباً من مذاهب الفلسفة ،  
وليس نخلة من نخل الزاهدين والمتأملين وليس هدفه من تلك الوسائل ما تهدف  
الفلسفة من كمال عقلي . وطاقة نظرية وما ينشده الزهاد والنسك من اطلاق  
لقوى الروح . حتى تأتي بالعجائب والغرائب .



وإنما التصوف الإسلامى هو كمال فى العبادة . وكمال فى الطاعة . وكمال فى العبودية . هو محبة لله . وعمل على رضاه ، وأمل فى بجواه ، هو أنشودة يشترك فيها القلب والروح والحس والجوارح . أنشودة تسبح بحمد الله لا تفتر ولا تهدأ لأن لحنها دائم الحياة فى القلب . دائم الحياة فى الروح . دائم الحياة فى الإدراك والحس .

أنشودة تحيل الكون بأسره إلى آية ربانية . يلبسها القلب كما تراها العين وتسمعها الأذن . كما تدركها الروح . فإذا بكل شىء محراب . وإذا بكل شىء مصلى . وإذا بالصوفى لا يبرح المحراب ولا يفارق المصلى ، أينما توجه بوجهه وسبح بذكره . إنه دائماً مع الله فهو متأدب بأدب من أحسن يقيناً فى كل لحظة بصر . بأن الله معه يسمع ويرى .

وما يأتى بعد ذلك من علم وفيض . وما يأتى بعد ذلك من خارقة أوكرامة . وما يأتى بعد ذلك من كمال روحى أو اشراق نفسى . فهو نافذة ، لأنه وسيلة لا غاية . وسلم لا هدف .

فالمعارف الصوفية إذن ثمرة الكمال فى العبادة ومنحة الفيض فى الطاعة وأنوار القلب فى محبته ونجواه . إنها حلى الطريق . لا أساسه وروحه . وإذن فلا سبيل إلى إقامة صلة من الصلوات بين التصوف الإسلامى وبين أى لون من ألوان الروحانية العالمية .

ولا سبيل إلى المقارنة بين المعارف الصوفية الإسلامية وبين المعارف الفلسفية والنظرية والعقلية التى جرت على وجه الأرض مع أعنة التاريخ الإنسانى . فتللك المذاهب الفلسفية والعقلية ، قد استمدت معارفها من التفوق العقلى تارة ، ومن الصفاء الروحى تارة أخرى ، أما التصوف الإسلامى ، فمعارفه نبعها عقيدته الإسلامية ، ومددها فيض ربانى داخل نطاق تلك العقيدة القرآنية . وبأسرار عبادتها ، وبذلك تحددت رسالة التصوف وعرفت ضوابطها



بينما أعنته المعارف الروحانية الأخرى . لا تقبض عليها يد نتحاكم إليها ، ولم  
ترسم لها شريعة نرجع لها ولم تنبت معارفها في حقل إيمانى سماوى يمنعها من  
النزوات والانذفاعات .

التصوف الإسلامى آية ، سرها فى الهدى القرآنى ، والروحانية المحمدية  
وإلى لأحسبه أحيانا آية ، كونية . لأنه ضرورة لازمة لهذا الوجود . وغاية  
من غاياته وحجتنا قوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .  
والتصوف هو أكمل صور العبادات فى خير أمة أخرجت للناس .  
لأنه تطوع دائم للعبادة . تطوع بعد الفرائض والنوافل . ولهذا لم يكن  
شريعة عامة بل كان ميزة خاصة : لمن أخذ الكتاب بقوة واصطفاه الله وأتاه  
عزما وعلمه من لدنه علما .

وإذن فلن نعالى إذا قلنا إن قمة المعارف اللدنية التى بلغتها الأجنحة  
الصوفية الإسلامية لم تبلغها بل لم تدن منها أجنحة أخرى . لأنها قمة المحبة  
الربانية وهى قمة لا تصل إليها إلا الأجنحة المحمدية المؤمنة العابدة .



## الطريق الرباني

### والمعارف الإلهية

الكشف الباطني ، والفيض الرباني ، هما عنوان التصوف الاسلامي وهما المحور الذي تدور حوله المعارف الصوفية كما تدور حوله الخصومات بينهم وبين رجال الفكر من أصحاب المذاهب النظرية والعقائمية ، وبين رجال العلم الظاهري من الفقهاء الذين قدسوا القواعد التي ابتكروها للمعرفة وتنادوا بأنها دون سواها . الحكمة وفصل الخطاب .

وأنا أجزؤ فأقول : إنه لا الكشف الباطني ، ولا الفيض الرباني هدفا من أهداف المتصوفة الإسلاميين ولا غرضا من أغراض العباد الربانيين . إنما هدفهم الأول عبادة الله . عبادة خالصة له دون سواه ، عبادة تقربهم منه وتدينهم من رضاه ، وقد تفننوا في هذه العبادة وجعلوها شرعة ومنهاجا وكونوا من فلسفتها آدابا وأخلاقا ، وسبحوا في بحارها سبيحا طويلا فكانت قوتهم ، وكانت حياتهم ، ومن تلك العبادة كان ذوقهم وكان لحنهم .

والمتصوفة حقا . هم العاملون لا المتكلمون . هم الذين تطوعوا لله فوق الفرائض والنوافل . وترقوا في هذا التطوع حتى تكونت لديهم حساسية إيمانية . أو طاقة تعبدية . تكاد تدخل في نطاق المعجزة . حتى لهم ليراقبوا الله مع أنفاسهم . فيكل نفس يخرج من صدورهم ، فهو لذكر الله ، أو استغفار أو تضرع أو نجوى .

وتلك العبادة الدائمة الخالصة أدنتهم من الله وقربتهم فأحبهم وأحبوه . وأنس بهم ، وأنسوا به ، ورضى عنهم ورضوا عنه ، فغمرتهم أنوار المحبة ، وفاضت حياتهم بالنور والسعادة والآنس والقرب . فتكونت لهم فلسفة في المحبة ، جعلوها شرعة ونهجا . وأنشودة ولحنا ، ومن تلك المحبة . كان ذوقهم



وكان لوهم . ومنها تفرعت مقاماتهم وأحوالهم ، وعليها كان تحليقهم  
وكانت معارجهم .

ثم أفاض الله عليهم المعارف اللدنية جزاءً وفاقاً . ومنحهم الكشف  
الباطني هبة وعطاء ورزقهم فوق هذا رزقاً أضرروه ، فكان السر الذي ضنوا  
به حيناً ورمزوا إليه أحياناً ، وسر هذا السر يلتمس عند الأثر المشهور :  
« عبدی اطعنی تسکن ربانیا تقل للشيء كن فيكون » .

ذلك فصل الخطاب في التصوف . فالكشف الباطني والعلم اللدني .  
والخوارق والكرامات لم تسكن هدفاً ولا غرضاً ولا أملاً لدى المتصوفة ،  
وإنما كانت هبة ومنحة وعطاء ربانياً .

والكشف الباطني والعلم الرباني . رغم ما دار حوله من جدل وحوار ،  
ورغم ما أثير بسببه من ملاحظات وخصومات ورد به القرآن الكريم  
ووردت به الأحاديث الصحيحة .

قال تعالى : « واتقوا الله ويعلمكم الله ، « إن تقوا الله يجعل لكم فرقاناً ،  
« عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلّمناه من لدنا علماً ، « قال الذي  
عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، « يؤت الحكمة  
من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ، .

وقصة موسى والخضر معروفة ومعروضة في القرآن الكريم عرضاً  
مبيناً تجلت فيه مكانة العلم اللدني ، والمعرفة الباطنية التي أوتيتها الخضر من  
لدى ربه .

ووردت هذه القصة في كتب الأحاديث الصحاح بصورة مجلوة ناطقة  
بأن العلم لله وحده . ثم هو للإنسان عارياً ، يمنحه الله لمن يشاء، نبياً كان أو ولياً .

عن أبي بن كعب ، عن النبي صلوات الله وسلامه عليه قال : قام موسى  
خطيباً في بني إسرائيل ، فسئل أي الناس أعلم ؟ فقال أنا أعلم . فعتب الله عليه



إذ لم يرد العلم الى الله فأوحى الله اليه : إن عبداً من عبادى بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال : يارب . وكيف به . فقبل له ، أحمل حوتاً فى مكمل فإذا فقدته فهو ثم . فانطلق وانطلق وانطلق معه فتاة يوشع بن نون ، وحمل حوتاً فى مكمل حتى كانا عند الصخرة ، وضعا رأسهما فناما ، فانسلا الحوت من المكمل فاتخذ سبيله فى البحر سرباً . وكان لموسى وفتاه عجباً ، فانطلقا بقية ليلتهما ويومهما . فلما أصبحا ، قال موسى لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا . ولم يجد موسى مسا من النصب حتى جاوز المكان الذى أمر به فقال له فتاه : رأيت إذ آوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت ، قال موسى ذلك ما كنا نبغى ، فارتدا على آثارهما قصصاً . فلما انتهيا إلى الصخرة ، اذا برجل مسجى بثوب . أو قال مسجى بثوبه . فسلم موسى فقال الخضر . وأنا بأرضك السلام فقال أنا موسى . فقال : موسى بنى اسرائيل ؟ قال نعم . قال : هل أتبعك على أن تعلمنى بما علمت رشداً ، قال : انك لن تستطيع معى صبراً ، يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت . وأنت على علم علمك الله لا أعلمه .

ثم روى الحديث بقية القصة كما وردت فى القرآن الكريم . وختم الحديث قوله صلوات الله وسلامه عليه « لوددنا لو صبر موسى حتى يعرض علينا من أمرهما ، »<sup>(١)</sup>

الخضر على علم من علم الله . علمه إياه لا يعلمه موسى . وموسى على علم علمه له الله لا يعلمه الخضر . فالعلم إذن علم الله يهب منه ما يشاء لمن يشاء . والعلم صفة من صفات الله يفيض منه على عباده بنسب حكمتها عند فاطر السموات والأرضين ، وسرها عند من أوحى الى النحل ، وأنطق النمل ، وألهم الطير تسبيحه يقول تعالى : « كلاندهو لاوهو لا . وما كان عطاء ربك محذورا .

(١) رواه البخارى فى صحيحه .



ويقول الغزالي في الرسالة اللدنية مفصلا بين العليين الباطني والظاهري ومدللا على شرف العلم اللدني وسيادته .

« وبيان هذا يوجد في قصة آدم عليه السلام والملائكة فانهم تعلموا طول عمرهم ، وحصلوا بفنون الطرق كثيراً من العلوم حتى صاروا أعلم المخلوقات وأعرف الموجودات وآدم عليه السلام ما كان عالماً لأنه ما تعلم . وما رأى معلماً . فتفاخرت الملائكة عليه فقالوا نحن نسمح بحمدك ونقدس لك . ونعلم حقائق الأشياء . فرجع آدم عليه السلام إلى باب خالقه وأخرج قلبه عن جملة المكونات . وأقبل بالاستعانة على الرب تعالى ، فعلمه جميع الأسماء . ثم عرضهم على الملائكة . فقال : أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، فصغر حالهم عند آدم وقل عليهم وانكسرت سفينة جبروتهم فغرقوا في بحر العجز ! قالوا لا علم لنا إلا ما علمتنا . فقال تعالى : يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فأنبأهم آدم عليه السلام عدة مكونات العلم ومستندات الأمر . فتمقرر الأمر عند العقلاء ، أن العلم الغيبي اللدني أكمل من العلوم المكتسبة .

وإذن فالعلم اللدني مقرر في أصول الشريعة الإسلامية مبين للحن في القرآن والسنة المحمدية . ولكن ومن عجب ؟ أن المتصوفة قد هوجوا هجوما عنيفا فاسياسا بسببه من العقليين والفقهاء وخاصة فقهاء الحنابلة . الذين كان أمامهم الجليل أحمد بن حنبل من رؤوس التصوف وأعلامه بأخلاقه وتعبداته ولون حياته وهو القائل « ليس العلم بكثرة التلقين والرواية وإنما هو نور يقذفه الله في قلب من أحبه وأطاعه . »

وأعجب من هذا العجب أنهم يهاجمون هذا العلم الصوفي في موقف النقد للتصوفة . ثم يقررونه في مواقف أخرى إذا راق لهم الأمر . فابن تيمية وهو رأس تلك الطائفة الناقدة المجرحة يشرح في رسالته معنى الوحي ثم يعقب قائلاً .



• والالهام بالمعنى السالف للدؤمنين جميعا ييقين ، ثم يتحدث عن الفيض الرباني فيقول ، وهو لمن أطاع الله و اتقاه ، ويستشهد على ذلك بالآيات والأحاديث مهللا ومكبرا الحديث أبو هريرة الذى رواه البخارى عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه « ... ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ، ثم يقول وهذا الحديث غاية الغايات فى الالهام والفيض .

• ويقول ابن القيم تلميذ ابن تيمية الأكبر فى كتابه « الوابل الصيب ، الذى ذكر شجرة وكلما عظمت تلك الشجرة ورسخ أصلها كان أعظم ثمرتها . فالذكر يشمر المقامات كلها من اليقظة إلى التوحيد .

• وإذن فحتى خصوم المتصوفة قد سلخوا بالكشف والفيض والالهام . والمذاهب الروحية العالمية جميعها تؤمن بأن الصفاء الروحية والزهد والأعراض عن مفاتن الدنيا ومباهجها طريقا للمعرفة ، وطريقا أيضا للخوارق والهيمنة على عناصر الطبيعة .

• يقول الأستاذ العقاد فى كتابه عن غاندى شارحا لصلاة غاندى وأثرها فى تكوينه ومقامها من زعامته .

• وصلاة غاندى هى أعظم شىء فى بنیان عقيدته . فنحن لهذا نقرب من فهمه كلما اقتربنا من فهم صلاته ، لأن الصلاة عنده لا تنبت عن طلب أو إستغائة أو ابتهاج . ولكنها تنبعث إلى حس فوق الحس وفوق التفكير وفوق الطلب والابتهاج ، وهى عنده أعلى مراتب الوعى الذى يتاح للكائن الموجود ، لأن الروح الإلهى فى اعتقاده ، سار فى جميع الموجودات ولا يزال الانسان محصورا فى أوهاق الجسد . أو فى أوهاق المادة على العموم . مادام معتمدا على الحواس أو على العواطف أو على التفكير فى ادراك ما حوله . ولكنه يرتقى إلى مرتبه من الوعى أعلى من مراتب التفكير عند ما يدرك الروح خالصا منزها من هذه الأوهاق .



فهو لا يصل بالحس إلى شيء أرفع من المادة وقد يرتقى بالتفكير إلى شيء أرفع مما يدركه الحس ولكنه لا يتجاوز به حدود المحسوسات .

وهناك مرتبة من التفكير أعلى من مرتبة التعقل المنطقي ، وهي مرتبة التأمل والانتقال بالوجدان عن كل ما يحيط بالإنسان .

ففي هذه المرتبة يستطيع الإنسان أن يسيطر على جسده ويسيطر على الطبيعة ويرتقى إلى الحالة التي يقهر بها المادة ويصنع الخوارق ويخالف العادات ، ثم يقول نقلا عن غاندي « إن من يجتهد سحر الصلاة قد يستغنى عن الطعام أياما ولا يستغنى عن الصلاة لحظة واحدة ، لأن الصلاة هي من صميم قلب الحياة الإنسانية » .

وإذن فسيطرة الإنسان على جسده وقمعه لشهواته وتحليه بالفضائل . والتجائه إلى الله . يتيح له فوق الإلهام وفوق المعرفة قوة خارقة يسيطر بها على الطبيعة ويرتقى إلى حالة تقهر المادة وتصنع الخوارق .

يقول الإمام الغزالي في كتابه « تهافت الفلاسفة » مدلا على صحة الإلهام وأثره في الأرواح .

( لو لم ير الإنسان المغناطيس وجذبه للحديد ، وقيل له ذلك لاستنكره ، وقال لا يتصور عقلا جذب الحديد إلا بخيط يشد عليه ويجذب به . فإنه المشاهد في الجذب ، حتى إذا شاهده تعجب منه . وعلم أن عليه قاصر عن عجائب القدرة ) .

ثم يقول . وفي خزائن القدرة عجائب وغرائب ينكرها من يظن أن لا وجود إلا لما يشاهده ،

وجاء في كتاب « الفلسفة القرآنية » للعقاد تعليقا على كلمة الغزالي « وما يقال عن جذب المغناطيس يقال عن جذب الكواكب أو تجاذبها على هذه الأبعاد الشاسعة في السماء فإن انتقال التأثير من الجاذب إلى المجذوب حقيقة لا ريب فيها ، ولكنها لا تفسر إلا بالفروض والتخمينات ، وتقدير الوسائل التي لا يقبها العيان ولا يقع بها البرهان .



والعجيب أن أدعياء العلم والعقل يشاهدون هذا وأمثاله ويسمعون تعليقه  
الذي يختلف فرضاً بعد فرض ، وتخميناً بعد تخمين فيسكتون ويسلبون  
أنه معقول ومفهوم . ولكنهم يستكثرون تأثير الروح في الأرواح ، وتأثير  
العقل في العقول ، لأنهم يريدون أن يلبسوا بأيديهم كيف تؤثر وكيف  
تتأثر . ولا يقبلون هنا ما يقبلونه في عالم الحس والعيان .

ثم يقول ، وأقرب الكائنات إلى الله هو الكائن الذي يعي ذاته ويعي  
موجده — أي الإنسان — ويستمد منه قبساً من القدرة الإلهية .

أجل لاحيلة لنا في هؤلاء الناس الذين يؤمنون بعجائب الظواهر الطبيعية  
التي تبنى على الفروض والتخمينات ، ولا يريدون أن يؤمنوا بمشيلاتها في  
عالم الروح ، بل يريدون متعنتين أن يلبسوا بأيديهم قدرة الله الخارقة .  
ويريدون أن يلبسوا بأيديهم كيف يلهم الله من أحب من عباده وكيف  
يعلمهم من لدنه علماً . لاحيلة لنا في هؤلاء وأمثالهم من المتفلسفين على  
جهالة . إلا أن نقول لهم كلمة شكسبير على لسان هملت ، إن السماء والأرض  
ياهو راشيو . تحويان من الأسرار ما لا تحلم به فلسفتك .



## هل تتعارض المعارف الصوفية

مع القرآن والسنة . . .

روى أحمد والبخارى وأبو داود والنسائي ، أن الامام علي بن أبي طالب رضى الله عنه سئل . هل خصكم رسول الله بشيء دون الناس . فقال : لا والذي فلق الحبة . وبرأ النسمة ، إلا فهما يؤتیه الله عبداً في كتابه ،

وكلمة الامام علي كرم الله وجهه مفتاح من مفاتيح التصوف ، أو مفتاح من المفاتيح التي تؤدي بنا إلى فهم حقيقة الروح الصوفى .

لأن عماد التصوف وقوامه في المعرفة . هو الفهم في الدين ، والبصر بالتأويل . فهما يعطيه الله لمن ارتضى من عباده . واستنباطا يهدى إليه الله من أحب واصطفي .

وهذا الفهم ، وذلك الاستنباط من منح الله لعباده . فلسنا إذن في حاجة إلى أن نقول . إن شرطهما هو موافقتهما للكتاب والسنة . فتلك بديهة من بديهات العقول .

فكما أن العبادات في التصوف قوامها تطوع لما بعد الفرائض والنوافل كذلك علم الباطن هو معان واستنباطات وفهم في القرآن فوق ما يعطيه العلم الظاهر .

فليس هناك مثلاً فهماً باطنياً يزيد أو ينقص من الفرائض ، ولا فهماً باطنياً يعطل شيئاً من الشرائع وإنما هو فهم في المعنويات ، وفهم في الكلمات التعبديّة والتحليلات الأخلاقية .

يقول الشعراني في الطبقات الكبرى :



ثم اعلم أخى أن علم التصوف عبارة عن علم انقذح في قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة فكل من عمل بهما انقذح له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها ، نظير ما انقذح لعلماء الشريعة من الأحكام حين عملوا بما علموه من أحكامها ، فالتصوف إنما هو زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة إذا خلا من علة العلل وحظوظ النفس ، كما أن علم المعاني والبيان زبدة علم النحو . فمن جعل علم التصوف علماً مستقلاً فقد صدق ومن جعله من عين أحكام الشريعة صدق . كما أن من جعل علم المعاني والبيان علماً مستقلاً صدق ومن جعله من جملة علم النحو فقد صدق .

ثم يقول ، ولكنه لا يشرف على ذوق أن علم التصوف تفرع من عين الشريعة إلا من تبحر في علم الشريعة حتى بلغ الغاية . ثم أن العبد إذا دخل طريق القوم وتبحر فيها أعطاه الله هناك قوة الاستنباط نظير الأحكام الظاهرة على حد سواء ، فيستنبط في الطريق واجبات ومندوبات وآداب ومكروهات . .

وتلك الكلمة للشعراني من الآيات التي توضح موقف التصوف من الشريعة الإسلامية ، ومن الآيات المبينات للنهج الصوفي الصادق .

فليس من رسالة التصوف البحث في فرائض الأحكام الشرعية . ولا البحث في الصفات الربانية ولا الجدال والحوار في المعارف الفلسفية والمذاهب العقلية .

وإنما التصوف تطوع دائم للعبادة ، وهذا التطوع التعبدى جعل أربابه يستنبطون ألواناً من الأدب يحملون بها أنفسهم وهم قيام بهذه العبودية ، وألواناً من الواجبات في الذكر والخلوة والسلوك ، وألواناً من المعرفة ترقرت لهم من مراقبتهم لأنفسهم وتفتيشهم لقلوبهم وتجملت لهم في مواجيد الأئس والمحبة ، كما أنهم فرضوا على أنفسهم زهداً خاصاً جعل لهم حساسية



مشركة وذوقاً ملهما في طرائق العبودية . لأنهم ينشدون الكمال في تلك العبودية، ولأنهم آمنوا بأنها هدف الحياة وغاياتها العليا . أو كما يقول الحسن البصرى « إن في زماننا رجال ينظرون إلى مسائل كأنها شعرة ولقد أدر كنا رجالا كانوا يعتبرونها من الكبائر ، وكان الامام أحمد بن حنبل يقول « إظهار المحبرة من الرياء ، وهو معنى في التواضع لا يعرفه إلا الأصفياء . ويقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه « لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس ، رواه الترمذى .

ذلك محور التصوف الصادق وتلك دائرته . وكما حفظ علماء الظاهر حدود الشريعة وأحكامها . كذلك يحفظ المتصوفة للشريعة آدابها وروحها . وكما أتيح للفقهاء الاجتهاد في استنباط الأدلة واستخراج الحدود والفروع . والحكم بالتجليل والتحریم على ما لم يرد فيه نص . وترك أمره للاجتهاد والاستنباط فكذلك للعارفين . أن يستنبطوا مما لهموا وعرفوا وذاقوا أحكاماً في الأمور التي لم ينص عليها . ولهم أيضاً أن يستنبطوا آداباً وأذوقاً ونهجاً للمريدين والعابدین .

فالتصوف علومه واجتهاداته التي ينفرد بها . ولتلك العلوم أثرها ومكائنها ومقامها بداخل حدود التشريع الإسلامى الظاهرى .

ويقول الشعرانى « فمن دقق النظر علم أنه لا يخرج شيء من علوم أهل الله تعالى عن الشريعة . وكيف تخرج . والشريعة وصلتهم إلى الله عز وجل في كل لحظة .

ثم يقول « ولكن أصل استغراب من لا الماس له بأهل الله أن علم التصوف من عين الشريعة . كونه لم يتبحر في علم الشريعة . ولذلك قال الجنيد « علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة دال على من توهم خروجه عنها في ذلك الزمان أو غيره وقد أجمع القوم على أنه لا يصلح للتصدر في طريق الله



عز وجل إلا من تبجر في علوم الشريعة وعلم منطوقها ومفهومها وخاصها  
وعامها وناسخها ومنسوخها . وتبجر في لغة العرب حتى عرف مجازاتها  
واستعاراتها وغير ذلك . وبكل صوفي فقيه ولا عكس . وبالجملة فما أنكر  
أحوال الصوفية إلا من جهل حالهم .

صدق الشعرائي . فإنه لا يشكر التصوف إلا من جهله علماً وذوقاً .  
ولا يشكر طريق التصوف إلا عويلم ليست له ضلالة في العلم . ولا مكانة  
في المعرفة ، أما العلماء حقاً من رجال الفقه والاجتهاد والفتيا فقد سلموا  
للتصوف علماً وذوقاً . سلموا له لا بصدقه فحسب . بل سلموا بالتفوق  
والزعامة . سلموا له بأنه أفق لا تصعد إليه أجنحتهم لأن لأجنحته تفوق  
غلاب سره في تعبدها ، كما أن سر علومه في الهامها .

يقول القشيري في رسالته مدلالاً على مكانة التصوف والمتصوفة :

« لم يكن عصر في مدة الإسلام وفيه شيخ من هذه الطائفة إلا وأئمة ذلك  
الوقت من العلماء قد استسلموا لذلك الشيخ وتواضعوا له وتبركوا به  
ولو لا مزية وخصوصية للقوم لكان الأمر بالعكس » .

ويسوق الشعرائي الأدلة على كلمة القشيري فيقول « لقد أذعن الإمام  
الشافعي لشييان الراعي ، حين طلب منه الإمام أحمد ابن حنبل أن يسأله  
عمن ينسب صلاة لا يدري أى صلاة هي ، فقال شييان — هذا رجل غفل  
عن الله عز وجل فجزأؤه أن يؤدب » .

وكان أحمد بن حنبل يرسل إلى أبي حمزة البغدادي دقاتق المسائل ويقول  
افتنى في هذا يا صوفي ؟ وكان يقول لابنه ناصحاً وموجهاً ، عليك بملازمة  
المتصوفة ، فاتهم بلغوا مقاماً في الإخلاص لم يبلغه » .



ويقول محي الدين شيخ المتصوفة الأكبر في الفتوحات « إن طريق الوصول إلى علم القوم الإيمان والتقوى ، . ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب » والرزق نوعان روحاني وجسماني . وقال تعالى « واتقوا الله ويعلمكم الله » ، أى يعلمكم ما لم تكونوا تعلمونه بالوسائل من العلوم الإلهية .

ثم يقول فعليك يا أخى بالتصديق والتسليم لهذه الطائفة ولا تتوهم فيما يفسرون به الكتاب والسنة أن ذلك إحالة للظاهر عن ظاهره ولكن لظاهر الآية والحديث مفهوم بحسب الناس وتفاوتهم بالفهم . فمن المعلوم ما جلب له الآية أو الحديث ودلت عليه في عرف اللسان و ثم افهام أخرى باطنية تفهم عند الآية أو الحديث لمن فتح الله عليه .

ثم يقول « ولا يصدنك عن تلقي هذه المعاني الغربية من هذه الطائفة الشريفة قول ذى جدل ومعارضة . أن هذا إحالة لكلام الله تعالى وكلام رسوله . فإنه ليس ذلك بإحالة . وإنما يكون إحالة لو قالوا . لا معنى للآية الشريفة والحديث إلا هذا الذى قلناه . وهم لم يقولوا ذلك . بل يقرون الظواهر على ظواهرها . مراداً بها موضوعاتها . ويفهمون عن الله تعالى فى نفوسهم ما يفهمهم بفضله ويفتحة على قلوبهم برحمته ومنته . ومعنى الفتح فى كلام هؤلاء القوم حيث أطلقوا ، كشف حجاب النفس أو القلب أو الروح لما جاء به رسول الله من الكتاب العزيز والأحاديث الشريفة . إذ الولى قسط لا يأتى بشرع جديد . وإنما يأتى بالفهم الجديد فى الكتاب والسنة الذى لم يكن يعرف لأحد من قبله . ولذلك يستغربه كل الاستغراب من لا إيمان له بأهل الطريق . ويقول هذا قول لم يقله أحد . على وجه الذم لهذا القول . .

فالمتصوفة إذن يقولون فى صراحة وجلاء ، إنهم لا يحيلون الظاهر عن



ظاهره بل يقرون الظواهر على ظواهرها . ولا يقولون إن ما ألهموه  
أو استنبطوه من الآية أو الحديث هو معنى الآية أو الحديث ولا معنى لهما  
إلا هو . وإنما يقولون هذا ما نرى . أو هذا فتح الله به علينا . ولك أن ترضاه  
ولك أن ترفضه . ولك أن تؤمن به ولك أن تدعه .

ويقول حجة الإسلام وحجة التصوف الإمام الغزالي .

« واعلم أن سالك سبيل الله تعالى قليل والمدعى فيه كثير . ونحن نعرفك  
علامتين له . العلامة الأولى أن تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة  
بميزان الشرع موقوفة على توفيقاته إيراداً وإصداراً وإقداماً وأحجاماً .  
إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها . ولا يصل  
فيه إلا من واطب على جملة من النوافل فكيف يصل إليه من أهمل الفرائض  
فان قلت : فهل تنتهي رتبة السالك إلى حد ينحط عنه بعض وظائف العبادات  
ولا يضره بعض المحظورات كما نقل عن بعض المشايخ من التساهل في هذه  
الأمور . فاعلم أن هذا عين الغرور . وإن المحققين قالوا - لو رأيت إنساناً  
يطير في الهواء ويمشى على الماء وهو يتعاطى أمراً يخالف الشرع فاعلم أنه  
شيطان وهو الحق ، .

ثم يقول إنى علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى  
خاصة . وأن سيرتهم أحسن السير وأخلاقهم أزكى الأخلاق . فان جميع  
حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة .

وماذا يقول القائلون في طريقة طهارتها وأول شروطها . تطهير القلب  
عما سوى الله ومفتاحها استغراق القلب بالكلية في ذكر الله وآخرها الفناء  
بالكلية في الله ، .

أجل ماذا يقول القائلون في طريقة أول شروطها تطهير القلب عما



سوى الله ، ومفتاحها استغراق القلب استغراقا كاملا في ذكر الله وآخرها  
الفناء في الله حبا وعبادة ، لقد أضفى التصوف على الوجود صورة جميلة  
مشرقة ، والبس الانسان صورة نورانية طاهرة ، وجعل للحياة هدفا وغاية  
قدسية عالية . وأى الغايات ... على من التسبيح والتجوى ، وفناء النفس  
في محارب الانس والتقوى .

يقول سهل النسري ، أصول طريقنا سبعة . التمسك بالكتاب والاعتداء  
بالسنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، وتجنب المعاصي ، ولزوم التوبة  
وأداء الحقوق ،

ويقول أبو الحسن الشاذلي ، إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة  
فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف وقل لنفسك . إن الله تعالى ضمن لي  
العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنهما في جانب الكشف ولا الإلهام  
ولا المشاهدة ، مع أنهم أجمعوا على أنه لا ينبغي العمل بالكشف ولا الإلهام  
ولا المشاهدة إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة ، ويقول أبو سعيد الخراز  
« كل باطن خلافه الظاهر فهو باطل »

هذا هو العلم الباطني في التصوف وتلك شرائطه وحدوده ، فبأى آية  
من آياته يكذب المدهنون . وبأى صورة من صورته يجحد المنكرون .

ويقول الشعراي متعجبا من خصوم التصوف وأعدائه « ما بلغنا قط  
عن أحد من القوم نهي أحدا عن الصلاة والزكاة والحج والصوم أبداً .  
ولا تعرض لمعارضة شيء من الشرائع ، وكيف يترك الولي ما كان سيدياً  
لوصوله إلى حضرة ربه ، إنما يحث الناس على الاكثار من أسباب الوصول  
فما بقي وجه الانكار إلا على مواجدهم وأفهامهم ، وتلك أمور لا تعارض  
شيئاً من صريح السنة ، والأمر في ذلك سهل ، فمن شاء فليصدقهم ويقبدي



بهم كقلدى المذاهب. ومن شاء فليسكت، ولا ينكر لأنهم مجتهدون فى الطريق  
والمجتهد لا يقدر انكاره على مجتهد آخر ،

ذلك فصل الخطاب فى حقيقة العلم اللدى ، وتلك رسالته لى المتصوفة .  
إنهم قوم مجتهدون كأئمة المذاهب الفقهية ، فان أئمة المذاهب قد اجتهدوا  
فى أحكام الفروع واختلفوا . ولم يقدر اختلافهم فى عقيدتهم ، ولم يقدر  
اختلافهم فى اجتهادهم .

فكذلك المتصوفة ، قوم اجتهدوا فى أمراض القلب وأدويتها ، وآداب  
العبودية وواجباتها وخفايا النفس والهوامتها ، ورفاق المحبة وأسرارها .  
قوم أخذوا عقيدتهم بقوة وعزم ، فتطوعوا لله تطوع أولى القوة والعزم  
وأخلصوا التوجه إلى الله اخلاصا جعلهم يتحرون السكال ، فهم أهلها ورجاله .  
واجتهدوا فى فلسفة السكال فكونوا من اجتهادهم نهجا لهم وسبلا وطريقا  
له قواعد ، كما له شرائطه .

وان كان الرجل — الجنتلمان — بلغة العصر . هو الرجل الممتاز  
بخلق وعادات سامية خاصة ، واضحة الأثر فى حركاته ومعاملاته وصلاته ، بل هو  
الرجل الذى فرض على نفسه آدابا وقواعد فى السلوك خاصة به ، يتميز بها ويعرف .  
فكذلك الصوفى هو الجنتلمان فى العبودية الربانية . الممتاز بخلق  
وعادات سامية خاصة واضحة الأثر فى حركاته ومعاملاته وصلاته . بل هو  
العابد الذى فرض على نفسه فى العبودية آدابا ونهجا يتميز به ويعرف .

فإن كنا رضىنا من رجال الدنيا آدابهم التى فرضوها على أنفسهم ،  
ورضىنا من رجال الفقه اجتهادهم فى الأحكام الفرعية ، وإجتهدهم فيما لم ينص  
عليه ، حتى إنهم حللوا وحرموا ، وقالوا هذا واجب ، وهذا مكروه . وهذا  
فرض ، وذلك سنة . ولم يقدر اختلافهم فى أحكامهم . ولم يقدر اجتهاد  
فقيه على اجتهاد مخالفه .



فكيف إذن نعرض على قوم اجتهدوا في العزائم ، واجتهدوا في التطوع  
واجتهدوا في التعبد واجتهدوا في نشدان الكمال ، وهم فوق ذلك لم يلزموا  
غيرهم بما افترضوا على أنفسهم ، بل صرحوا بأنهم أولى عزم ، وليس الناس  
كلهم سواء ، وما ينبغي أن يكونوا .

إن الفقهاء قد أرجعوا اجتهادهم إلى فهمهم في كتاب الله وسنة رسوله ،  
واستنبطوا أحكامهم منهما ، وكذلك المتصوفة يرجعون باجتهدهم واستنباطهم  
إلى الكتاب والسنة ، ويتحاكمون إليهما ، فهم والفقهاء إذن في صف اجتهادي  
واحد ، إلا أنهم أكمل ، لأن السبيل لم تتفرق بهم عن الغاية كما تفرقت برجال  
الفقه ؟ بل كان سبيلهم واضحاً محمداً محرراً ، لأنهم ألقوا بعزائمهم في نشدان  
الكمال في محاريب العبودية والطاعة ، واتجهوا إلى الله سبحانه بقلوبهم  
وأرواحهم وأحاسيسهم وعقولهم ، فلم تتفرق بهم سبيل ، ولم تجمع بهم نزوة .

ومن عجب أن بعض الفقهاء يرمون التصوف بالجورح والتطرف وابتكار  
ألوان في المعرفة ، مغرقة في الخيال ، مغرقة في الشذوذ ، مع أن الشذوذ  
والتطرف إن كان في ثمة طائفة من الطائفتين فهو في الفقهاء الذين شغلوا  
أنفسهم وشغلوا العالم الإسلامي معهم عن نور كتابهم المقدس ، بجدليات  
وتفرعات لا هدف لها إلا الجدل وحب الغلبة .

فقد افترضوا مسائل لا تقع ؟ بل لا يتصور وقوعها ! بل يستحيل  
في العقل وجودها ، وعاشوا في محاربا مجادلين مختلفين .

جاء في شرح مسلم . وما زاد الفقه صعوبة ما اتسع فيه أهل المذاهب  
من التفرعات والفروع حتى إنهم فرضوا ما يستحيل وقوعه عادة . فقالوا  
لو وطأ الخنثى نفسه فولد هل يرث ولده بالأبوة أو الأمومة أو بهما ؟ ولو  
تولد له ولد من بطنه وآخر من ظهره ، لم يتوارثا لأنهما لم يجتمعا في بطن ولا ظهر ،



ويقول السنوسى معلقاً على هذا الجرح الفقهي ، ولو اشتغل الإنسان بما يخصه من واجب ، وتعلم أمراض القلب وأدويتها واتقان عقائده والتفقه على معنى القرآن والحديث ، لكان أزكى لعلمه وأضوأ لقلبه .

وإن كان القلم قد جرى بنا إلى نقد الفقهاء ، فإنما ساقنا إلى ذلك المقارنة التي اقتضاها السياق ، ولنبرهن على أن الجرح إن وجد في بعض أدياء التصوف الذين جعلوا التعبد فلسفة فقد وجد مثله في بعض من انتسب إلى الفقه ، وإن كان الصادقون من الفريقين هم صفوة الأمة الإسلامية .

ونعود فنقول . إن الكشف الباطني في التصوف قائم على الكتاب والسنة . مقيد بهما وإن هدفه وغايته ابقاء الجذوة التعبدية الإيمانية مشرقة وضاءة في القلوب الإسلامية . وبذلك تحددت رسالة التصوف . ووضحت أهدافه .

وإذن فليس الكشف الباطني والعلم اللدني . شطحاً ولا إيهاماً . ولاطلاسماً ولا كلمات مهزوزة مجنحة ، ولا فلسفات جامحة ، كما زور المزورون في تاريخ التصوف ، أو كما جمجم الادعياء الدخلاء الذين مشوا في موكب التصوف وارتدوا بارديته وهم ليس منه .

إن عماد العلم اللدني وضابطه وحاكمه . لدى المتصوفة ، هو كتاب الله وهدى رسوله ، فكل من انحرف بقوله أو بعمله فقد برىء منه التصوف ، بل هو أصلاً ليس من أهله .

ومن شاء أن يعرف الصوفي الصادق من غيره فليحاكمه إلى هذا المبدأ الذي هتف به سادته الكمل وأئمة القادة ، وحينئذ يتميز الحديث من الطيب ، ويبين الزائف من الصادق .

هذا هو الميزان الذي عناه الشعرا في بقوله ، إن طريق القوم محررة



على الكتاب والسنة كتحرير الذهب ، أو كما يقول محي الدين ، من رمى من  
يده ميزان الشرع لحظة واحدة هلك ، .

ولقد كان شيخ الإسلام العز بن عبد السلام إذا سمع حديث أبي الحسن  
الشاذلي صاح ، هلموا إلى هذا الكلام القريب العهد من الله ، .

وذهب أبو العباس بن سريج إمام الفقهاء إلى حلقة الجنيد ليناقشه ويجادله  
فاستمع إليه صامتاً ثم خرج إلى أصحابه قائلاً ، لا أدري ما يقول ، ولكن  
لكلامه صولة ليست بصولة مبطل ، .

أجل إن للتصوف صولة هي صولة الحق ، وإن على الكلام الصوفي  
لطلاوة ، هي طلاوة الألفان القريبة العهد من الله ، لأنها من إلهامة ومن  
ينابيع رضاه .



## التصوف المفترى عليه

فإذا اتهمنا من توضيح العلم الباطني الصوفي ، وإنه فهم يعطى لذوى البصائر في كتاب الله وسنة رسوله ، وأنه مقيد بالكتاب والسنة لا ينحرف ولا يميل عنهما .

وأن رسالة المتصوفة ، أنهم فوق تعبدهم يجتهدون في أمراض القلب وأدويتها وآداب العبودية وواجباتها ، وخفايا النفس وإلهاماتها ، ورقائق المحبة وأسرارها ، وأن اجتهادهم في هذه المثاليات كاجتهاد الفقهاء في الفروع والسنن والواجبات التي لم يرد فيها نص صريح قاطع ، وكما حفظ أئمة الفقه حدود الشريعة الإسلامية بإقامة أحكامها ووضع دستورها كذلك حفظ المتصوفة للشريعة آدابها وروحانيتها ، وطهارتها الخلقية . وكالاتها النفسية .

إذ اتهمنا من هذه الخطوة التمهيدية في سبيل تجلية التصوف وتنقيته بما دس عليه وأدخل على محرابه ، كان لا بد لنا قبل الحديث عن كبرى المسائل التي الصقت به ونسبت إليه رغم طهارته ، وبراهته منها ، أن نتحدث قليلا عن الافتراء والدس ، بل عن المؤمرات التي دبرت لتشويه التاريخ الإسلامي كافة ، والعقائد التبعية منه خاصة ! وتاريخ الإسلام كعقيدة وفكرة ، وتاريخ الإسلام كنظام عالمي ، كل هذا لم يكتب إلى يومنا كتابة عادلة منصفة . كتابة تجلوه بخصائصه وفضائله الكبرى .

لقد شوه المؤرخون ، بل شوه المتأرون التاريخ الإسلامي عن عمد ، بما دسوا عليه وبما نسبوا إلى كبار شخصياته من عقائد وكلمات وأفعال ، كبار شخصياته سواء منهم أئمة الفكر أو رجال الفقه أو قادة الحرب ، أو رجال التصوف ، بل إن الخلفاء الراشدين أنفسهم لم يسلم تاريخهم من



التزييف والدس ، بل لقد دس في تفسير القرآن ، ودس في أحاديث الرسول ما يبرأ منه القرآن وما يبرأ منه الرسول . ولولا أن الله جلت قدرته وتعالته حكيمته حفظ كتابه الكريم ، لما تورع المفترون عن الدس والتزييف .

إن العالم الإسلامي اليوم وهو على أبواب وثبة من وثباته التاريخية يجب أن يتنبه لهذا ، يجب أن يتوافر العلماء والكتاب والباحثون على التاريخ الإسلامي ليعرضوه عرضاً جديداً كريماً وليكتبوه من جديد على ضوء العلم والمعرفة والروح الإسلامي النقي الملمهم .

يقول الامام ابن الجوزي في المنتظم

و لما جاء النبي صلوات الله وسلامه عليه . وقهر الأملاك و وقع الأحقاد ، اجتمع جماعة من الشوية والملحدين ومن دان بدين الفلاسفة المتقدمين فاعملوا رأيهم وقالوا . ثبت عندنا أن جميع الأنبياء كذبوا وخرقوا على أمهم . وأعظم الكل بلية علينا محمد - صلى الله عليه وسلم - فإنه نبغ بين العرب العظام وخدعهم بناموسه فنصروه وبذلوا أموالهم وأنفسهم وأخذوا بما لكانا . وقد طالت مدتهم ، والآن فقد تشاغل أتباعه ومنهم مقبل على كسب المال ، ومنهم على تشييد البنيان ، ومنهم على الملاهي . وقد ضعفت أبصارهم ، ونحن نطمع في أبطال دينهم إلا أننا لا يمكننا محاربتهم لكثرتهم فليس إلا الدس في آرائهم والانتهاج إلى فرقهم لنستعين بهم على أبطال دينهم .

ذلك ما يقوله الامام ابن الجوزي كاشفاً به عن لون من ألوان التزييف المتعمد في التاريخ الاسلامي ، وكاشفاً به عن لون عجيب من ألوان الهدم والتضليل في صفوف المسلمين .

فان هؤلاء المتأمرين من الملاحدة وأصحاب المذاهب الفلسفية المنقرضة قد جعلوا مؤامرتهم الكبرى ذات شعبتين ، الأولى مهمتها الدس والافتراء



بتزييف الآراء وصوغ العقائد الباطلة ونسبتها إلى رجال الفكر والعقائد  
للبليلة والافساد.

والشعبة الثانية تندس بين صفوف الفرق والمذاهب الاسلامية لتوقع  
بينها وتضخم من خلافاتها ولتزييف عليها مبادئها وعقائدها .

ولون آخر أعجب من هذا . تكفل به رجال مسلمون ؟ أغرموا بأن  
يلبسوا آرائهم القوة والمكانة فنسبوا إلى الأئمة والقادة . يقول ابن الفراء  
في طبقاته نقلا عن أبي بكر المرزوى ومسدد ، وحرب : أنهم قد رووا  
الكثير من المسائل ونسبوا إلى أحمد بن حنبل : وبعد أن يفيض في ذكر  
هذه المسائل يقول :

رجالان صالحان بليبا بأصحاب سوء جعفر الصادق وأحمد بن حنبل .  
أما جعفر فقد نسبت إليه أقوال كثيرة دونت في فقه الشيعة الامامية على أنها  
له وهو برىء منها ، وأما أحمد فقد نسب إليه بعض الحنابلة آراء في العقائد  
لم يقل بها ، وإن هذا بلا شك يثير الريب في نسبة الفقه الحنبلي إلى أحمد . .  
وابن الفراء عالم وفقه ومؤرخ حجة ، ومع هذا فهو يتشكك إلى درجة  
الريب في نسبة الفقه الحنبلي إلى أحمد بن حنبل ؟

وأنه لشيء عجيب ومذهل حقا أن يزيف على الامة الإسلامية مذهباً  
من مذاهبها الكبرى وأن يقوم بهذا التزييف أصدقاء الامام نفسه وأتباعه .  
وجاء في رسالة الاسلام (١) ، أن خصوم الاسلام من الامم المختلفة لما  
انهزموا حربيًا وتحطمت دولهم ، انتهزت بقاياهم الخصومات السياسية الاسلامية  
فظهروا في صور شتى وألوان مختلفة مرة في السياسية باثارة الاحقاد وبث الفتن  
والمكائد وإذكاء نيران العصبية ، ومرة بافساد العلم والفكر عن طريق الوضع  
والافتراء والتأويل الفاسد وإثارة الشبهة والخوض فيما نهى الله ورسوله عنه .



كاغذيت هذه الخلافات وهذه السياسات بكثير من الروايات الملفقة والأحاديث الموضوعية والأخبار المفتراة، وامتلات كتب التفسير والحديث والمغازي والمناقب بما لا يحصى من الأكاذيب . فأصبح بجوار كل آية من كتاب الله رواية من الروايات تلوى بها عن مقاصدها . وبجوار كل حديث نبوى عشرات الأحاديث الكاذبة تراجمه وتواثبه ، وفي تاريخ كل عظيم أو مفكر أو عابد شائبات تنال منه .

ولو ذهبنا نتقصى ألوان التزيف في التاريخ الإسلامى لما وسعتنا هذه العجالة التى خصصناها للتصوف والمتصوفة .

التصوف والمتصوفة اللذان كان نصيهما من الدس والافتراء أعظم وأخطر من سواهما . لأن المزيفين أدركوا أن التصوف هو روح الإسلام ، وأن المتصوفة هم قوته الروحية الضخمة ، وشعلته الوضاء المشرقة فأرادوا أن يطفئوا هذا النور ، وأن يلغوا فى هذا البيان المبين .

يقول السهروردى فى عواف المعارف .

« ثم أن إشارى لهدى هؤلاء القوم ومحبتى لهم ، علما بشرف حالهم وصحة طريقتهم المبنية على الكتاب والسنة حدا بى أن أولف أبواباً فى الحقائق والآداب معربة عن وجه الصواب فيما اعتقدوه . شعر بشهادة صريح العلم لهم فيما اعتمدوه . حيث كثر المتشبهون واختلفت أحوالهم وتستر بزيمهم المتسترون ، وفسدت أعمالهم ، وسبق إلى قلب من لا يعرف أصول علمهم سوء الظن ، وكاد لا يسلم من وقية فىهم وطعن . »

ويقول محي الدين فى الفتوحات « مما يفتح باب قلة الاعتقاد فى أولياء الله وقوع زلة ممن تزيا بزيمهم وانتسب إلى مثل طريقتهم ، والوقوف مع ذلك

(١) نقل عن الامام احمد أنه قال : ثلاثة كتب ليس لها أصل ، المغازى والملاحم والتفسير .



من أكبر القواطع عن الله عز وجل ، قال تعالى ، ولا تزروا زرة وزر أخرى ،  
أجل أكبر القواطع عن الله عز وجل أن يلتبس أمر الزائف من  
الصحيح في التصوف على الناس ، فيرمى المتعجل التصوف قاطبة بالأفك  
والبهتان .

لقد دس على التصوف المزيفون من رجال التاريخ ، ودس على التصوف  
أهل الحاد وخصوم الاسلام ، وشوه التصوف رجال مغرضون ، تزوا بزويه  
وانتسبوا إليه فشوهوا وجهه بأفعالهم . وشوهوا سيرته بأقوالهم . وهو  
منهم براء . وهو لهم خصم واضح الحجته .  
يقول الشعراني

« والانكار على هذه الطائفة لم يزل في كل عصر . بسبب الدس والافتراء  
ولعلو ذرق مقامهم على غالب العقول . ولكنهم لكما لهم لا يتغيرون كما  
لا يتغير الجبل من نفخة ناموسة .

ويقول الشيخ أبو الحسن الشاذلي ، لقد ابتلى الله هذه الطائفة الشريفة  
بالحلق . خصوصاً أهل الجدل والافتراء ،

ولقد خصص الشعراني بحثاً طويلاً جليلاً في مقدمة البواقيت والجواهر  
تناول فيه الافتراء على المتصوفة كما تناول فيه الخصومات التي قامت حولهم  
وأحاطت بهم .

يقول الشعراني في هذه الدراسة

« إنه ما من نبي أو ولي إلا وابتلى بالخصومات كما ابتلى بالحسدة والساسين  
ثم يضرب المثل بالأنبياء والرسل صلوات الله عليهم . الذين ابتلوا  
بالخصومات والافتراءات ونسبت إليهم صفات هم منها الظهرة الأبرياء .  
ثم كبار الصحابة رضوان الله عليهم ، كسعد بن أبي وقاص ، الذي اتهمه  
أهل الكوفة بأنه لا يحسن الوضوء ولا الصلاة . وعبد الله بن الزبير اتهم  
بالرياء في صومه وعباداته .



ثم التابعون والأئمة . حيث ضرب أحمد بن حنبل حتى تمزق جسده وتلف .  
ونسبوا إليه الكفر تارة . والجهل تارة أخرى . وأبو حنيفة الذي جعله  
خصومه من المرجئة حيناً ومن المبتدعين أحياناً . والذي اضطهده الخلفاء  
وعذّبوه وجلدوه بالسياط ورموه بالكبائر ، واستخفى مالك خمساً وعشرين  
سنة لا يخرج لجمعة أو جماعة خوفاً من خصومه الذين ملؤا الدنيا حوله صياحاً  
واتهاماً . وعانى الشافعي ما عانى في مصر والعراق مما أفسح له التاريخ  
مكاناً وبياناً .

ثم يقول : وما من صوفي إلا وأحاطت به عصبة السوء والأفك تجريحاً  
وتشهيراً ودساً وافتراءً . فقد نفوا البسطامي سبع مرات من بلده بتهمة  
الكفر والزندقة . وأحلوا دم ذى النون المصري . وشهدوا على الجنيد  
بالكفر والاحاد ، ودسوا على الغزالي في الأحياء عدة مسائل تنبه لها  
القاضي عياض وأرشد إليها وأمر بإحراقها ، ودسوا على محي الدين في  
الفتوحات ليوقعوا فيها من أراد الله إضلاله من جهلة المتصوفة ، فإن الشيخ  
محي الدين من أكابر الأولياء والراسخين ، فربما قال لهم إبليس إن ما في كتبه  
ليس مدسوساً عليه ، وإنما ذلك كان اعتقاده ، ويكفيكم في الدين ، اتباع هذا  
الرجل الجليل . فعظمه في أعينهم حتى لا يتوقفوا في اعتقاد ما يجدونه في  
كتبه من المدسوس .

ثم يقول .

« ولقد تنبه لما في كتب محيي ، من الدس والافتراء ، الفير وزبادي  
وصاحب نفع الطيب ، ثم يقول أيضاً . إنه عند ما أخذ في تأليف مختصر  
للفتوحات رأى فيها أشياء كثيرة لا تتفق مع ما عليه أهل السنة والجماعة فحذفها  
وتوقف فيها . ولم يزل كذلك حتى قدم عليه الشيخ شمس الدين محمد ، فذاكره  
في ذلك فأخرج له نسخة من الفتوحات التي قابلها على النسخة التي عليها خط



الشيخ محي الدين نفسه « بقونية » ، فلم ير فيها شيئاً مما توتف عليه وحذفه .  
ثم يقول . فعلت أن النسخ التي في مصر الآن كلها كتبت من النسخة  
التي دسوا على الشيخ فيها ما يخالف عقائد أهل السنة والجماعة كما وقع ذلك  
أيضاً في كتاب الفصوص وغيره من كتب محي الدين . .

ولا عجب فيما يرويه لنا الشعرائي ، فكاتب التفسير تروج بالاسرائيليات  
الكاذبة التي تنسب إلى ابن عباس مثلاً ، وهو منها البريء المطهر .  
وكتب الأحاديث تزخر بأمواج من الأحاديث الموضوعية والتي نسبها  
المزيفون إلى أفضل خلق الله وأصدقهم ؟

بل أن الحديث عن التزييف في الأدب العربي لا يزال قريب العهد بآذاننا  
حتى أن إمامنا من أئمة الأدب المعاصرين . قد تشكك في الشعر الجاهلي كافة .  
يقول الشعرائي . سمعت سيدي علياً الخواص يقول « ولو أن كمال الدعاة  
إلى الله تعالى كان موقوفاً على أطباق الخلق على تصديقهم . لكان رسل الله  
صلوات الله وسلامه عليهم أولى بذلك ، وقد خاصمهم الناس . فريقا  
يقتلون وفريقا يأسرون . .

والشعرائي نفسه . الذي خصص جهده الأكبر لتنقيمة التصوف من  
الدرس والدخيل . قد دس عليه حياً وميتاً ؟ وافترى عليه حياً وميتاً ؟  
يقول الشعرائي . « وما من الله به على انشراح صدرى لاتباع السنة  
المحمدية فعلاً واعتقاداً ، وانقباض خاطري ضد ذلك من حين كنت صغيراً ،  
حتى إنني بحمد الله أتوقف في بعض الأوقات عن العمل ببعض ما استحسنته  
بعض العلماء حتى يظهر وجه موافقته للكتاب والسنة . .

ثم يقول « فكذب والله وافترى من أشاع عني من الحسدة ، انني أشطح  
في أفعالي وأقوالى وعقائدي عن ظاهر الكتاب والسنة مع أن أحداً من  
هؤلاء الحسدة لم يجتمع بي قط ، ولا يثبت عنده ذلك بينة عادلة إنما .



بعض الحسدة ، زين له الشيطان ذلك لما عجز أن يجد مطعنا في أفعالي الظاهرة فافتري على ببعض الكلمات وداربها ،

ولم يكتفوا مع الشعراني بهذا، بل زيفوا مقدمة لكتابه كشف الغمة . ونشروها مع الكتاب في حياته واستعاروا نسخة من كتابه البحر المورود ودسوا فيها كفريات عابثة وأرسلوها إلى سائر أنحاء العالم الإسلامي وأثاروا فتنة في الأزهر عليه . ولبت التزييف قائماً ثلاث سنوات حتى تمكن الشعراني من إثبات كذب خصومه وتضليلهم .

أما ما زيف على الشعراني بعد وفاته فشيء ضخم عجيب سيأتي بيانه في موضعه من هذا الكتاب .

هذا التزييف؟ وذلك الدس ، كانا الدعامة الكبرى للمهجوم على التصوف والمتصوفة وهذا الدس وذلك التزييف هما سر ما نسب إلى التصوف ظلماً وزوراً من عقائد تمثلت فيها أساطير الملل والنحل كافة .

وفي طبيعة هذا الموكب الزائف الشائن . نرى فكرة وحدة الوجود الوثنية وما يتبعها من اتحاد وحلول وفناء الجزء في الكل كما يدعون .

كما نشاهد في هذا الموكب الشطحات الفلسفية المضللة التي خلعوا عليها أثواباً براقة خادعة . كدعوى الحقيقة المحمدية التي جعلوها قبة الوجود وأصله وسره (١) وما أطلقوا عليه كلمة الجذب وجعلوها مرادفة للتحلل من الشريعة قولاً وعملاً . وما ابتدعوا عن ذل وعجز وأسموه ورعاً وزهداً . وما تخيلوا من مذاهب باطنية منحرفة عن كتاب الله وسنة رسوله . وتنادوا بأنها الحق وأنها السر؟ وأنها الشيء المضمحل المراد المأول .

وكل هذا وذلك يبرأ منه التصوف ، ويبرأ منه المتصوفة بل هم أشد

(١) شرحنا الحقيقة المحمدية شرحاً كاملاً في كتابنا — حقائق التصوف الكبرى — فليراجع من يريد التوسع في تلك الدراسات .



الناس إنكاراً له وحرماً عليه . لأنهم أقوى الناس إيماناً وأبصر الناس بهدى كتابهم وسنة رسولهم .

إنهم العابدون المحبون الذين جعلوا الكون محراباً لله . فعاشوا طوال لحظاتهم في صلاة . عاشوا طوال حياتهم بأدب المصلي الذي لا تغفل جراحة من جوارحه عن المناجاة ، بأدب المصلي المنتظر المعلق القلب بربه المقبل بوجهه على خالقه ، بكل صغيرة مهما دقت في ميزانهم كبيرة ، بل كل رخصة لديهم ضعفاً ، لأنهم أولو عزم . وأصحاب العزمات هم المتطوعون أبداً للسكال . وكما لهم في إيمانهم . كما هو في آدابهم . كما هو في إعلاء كلمة دينهم ورسالة نبيهم .



## التصوف يرى من وحدة الوجود

وحدة الوجود، وفكرة الاتحاد والحلول. ففكرة إلحادية قديمة، عريقة في العبادات الهندية والديانات البوذية. وخلاصتها التي تقر بها إلى العقول. أن أصحابها انقسموا إلى فريقين. فريق يرى الله سبحانه وتعالى عما يصفون، روحا ويرى العالم جسما لذلك الروح، وإن الإنسان إذا سما وتطهر، ارتفع فالتصق بالروح — التي هي الله — ففنى فيها. فذاق السعادة الكبرى وظفر بالخلود الدائم.

والفريق الثاني يرى أن جميع الموجودات لا حقيقة لوجودها غير وجود الله. فكل شيء في زعمهم هو الله. والله هو كل شيء، يتجلى تجليا حقيقيا في كل شيء في الكون بذاته، فلا موجود إلا الوجود الواحد، ومع ذلك يتعدد بتعدد الصور تعددا حقيقيا واقعيا في نفس الأمر ولكن ذلك التعدد لا يوجب تعددا في ذات الوجود، كما أن تعدد أفراد الإنسان لا يوجب تعددا في حقيقة الإنسان. أو تعدد صور الإنسان الواحد في المرايا المجاورة لا تحتم تعدده.

تلك هي فكرتهم في وحدة الوجود. وهي سفسطة لا يقبلها منطق ولا عقل ولا شرع. سفسطة تذهب بالشرائع كافة والأديان جميعها، وتنال من الجلال والكمال الواجب لله سبحانه وتعالى، وتبطل الجزاء والعقاب والجنة والنار. والحياة الآخروية. كما تبطل الحدود بين الخالق والمخلوق فتجعل الخلق والخالق شيئا واحداً.

وهذا الإفك الأكبر، وهذا اللغو الألحادى الفاجر هو الذي قذف به خصوم التصوف المتصوفة. وهم من هم، إيمانا وكالا وأدبا وخلقا، ووحداية وتقديسا لفاطر السموات والأرض.



قذف خصوم التصوف المتصوفة بهذا الإفك . متخذين من جهم لجهم  
تكثرة ومقعداً لهذا الاتهام . وركض بهذا الافك في محراب التصوف رجال  
الاستشراق الذين لبسوا ثوب العلم بالإسلام في ثوب الدفاع عنه .

ثم تفلسف المستشرقون ، وتفلسف المتعاملون من الجهلاء بالتصوف  
والإسلام . فقالوا إن للتصوف علاقات وثيقة ببوذا ووثنية الهند ، وإن  
وحدة الوجود وفكرة الحلول ، عند المتصوفة أقباس من الصوفية البوذية  
ولحات من فلسفة المدرسة الاشراقية .

ونسوا أو تناسوا ، أن التصوف الإسلامي قام على كتاب الله وسنة  
رسوله وهديه . وأن الصوفي المسلم يقرأ في كتاب ربه « ليس كمثل شيء ،  
وهو السميع البصير ، فيقرأ خلاصة العلم الذي يتعلمه طلاب اللاهوت في  
سائر الملل والنحل . ويطوى تحت هذا البلاغ المبين كل فلسفة تتشدد ببحث  
الذات والصفات والخلق والخالق .

يقول الشعراني في اليواقيت « ولعمري إن عباد الأوثان لم يتجرؤا أن  
يجعلوا آلهتهم عين الله . بل قالوا ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فكيف  
يظن بأولياء الله تعالى أن يدعوا الاتحاد بالحق سبحانه ، هذا محال في حقهم  
رضى الله عنهم .

ويقول الإمام محي الدين بن عربي في عقيدته الوسطى « أعلم أن الله  
سبحانه واحد باجماع وقيام الواحد يتعالى أن يحل فيه شيء ، أو يحل هو في  
شيء أو يتحد بشيء .

ويقول في باب الأسرار من الفتوحات « لا يجوز للعارف أن يقول  
أنا الله ، ولو بلغ أقصى درجات القرب . وحاشا للعارف من هذا حاشاه .



ويقول أيضاً في لوائح الأنوار « من كمال العرفان شهود عبد ورب ، وكل عارف نبي شهود العبد في وقت ما ، فليس بعارف ، وإنما هو في ذلك الوقت صاحب حال ، وصاحب الحال سكران لا تحقيق عنده . »

ويقول في الفتوحات « لا حلول ولا اتحاد ، فإن القول بالحلول مرض لا يزول ، وما قال بالاتحاد إلا أهل الألحاد ، كما أن القائل بالحلول من أهل الجهل والفضول ومن دينه معلول ،

ويقول في باب الأسرار « أنت أنت . وهو هو . فيايك أن تقول كما قال العاشق ، أنا من أهوى ومن أهوى أنا . فهل قدر هذا أن يرد العين واحدة ، لا والله ، والجهل لا يتعقل حقاً . »

وقال أيضا « إياك أن تقول أنا هو . وتغالط . فيانك لو كنت هو لأحطت به كما أحاط تعالى بنفسه ،

ثم يقول « لو صح أن يرقى الإنسان عن إنسانيته والمملك عن ملكيته ويشهد بخالقه تعالى ، لصح انقلاب الحقائق وخرج الآله عن كونه إلهاً ، وصار الحق خلقاً ؟ والخلق حقاً ؟ وما وثق أحد بعلم ، وصار المحال واجباً ، فلا سبيل إلى قلب الحقائق أبداً ،

ويقول الجنيد شيخ الطريقة في الزد على الفجرة الفسقة أصحاب وحدة الوجود « إن هذا كلام من يقول بالإباحة . والسرقه والزنا عندنا أهون حالا ممن يقول بهذه المقالة ،

وسئل العارف الرباني الإمام سهل بن عبد الله التستري عن ذات الله عز وجل فقال « ذات الله موصوفة بالعلم غير مدركة بالإحاطة ، ولا مرئية بالأبصار في دار الدنيا ، وهي موجودة بحقائق الايمان من غير حد ولا حلول ، وتراه العيون في العقبى ظاهراً في ملكه وقدرته ، وقد حجب الخلق



عن معرفة كنه ذاته ، ودلهم عليه بآياته ، فالقلوب تعرفه ، والعقول لا تدركه  
ينظر إليه المؤمنون بالأبصار من غير إحاطة ولا إدراك نهائية ،

ويقول أيضاً مخاطباً الغرور المشري والوجود الإنساني « يا مسكين  
كان الله ولم تكن ، ويكون الله ولا تكون ، فلما كونك اليوم صرت تقول  
أنا وأنا ، كن الآن كما كنت قبل تكونينك ، واعرف فاقة نفسك وحقارتها ،  
ونزلها منزلتها من الذلة والاحتقار . »

ويقول الشعراني في المتن :

وبعضهم رأى أن كل شيء في الوجود هو الله ، وأن عين هذا الوجود  
الحادث هو عين الله . من الجماد والنبات والعقارب والحيات . والجان  
والانسان ، والمملك والشيطان ، ويجعلون الخالق هو عين المخلوق من خسيس  
ونفيس ومرجوم وملعون حتى إبليس ، وهذا كلام لا يرضاه أهل الجنون  
ولا من كان في حبه مجنون . والذي أقوله ، إن إبليس لو ظهر ونسب إليه  
هذا المعتقد لتبرأ منه واستحى من الله تعالى ، وإن كان هو الذي يلقي إلى  
نفوسهم ذلك

وقد حكيت لسیدی علی الخواص بعض صفات هؤلاء الذين يقولون  
هذا القول ، فقال : هؤلاء زنادقة ، وهم أنجس الطوائف ، لأنهم لا يرون  
حساباً ولا عقاباً ولا جنة ولا ناراً ولا حلالاً ولا حراماً ولا آخرة ولا لهم  
دين يرجعون إليه ولا معتمد يجتمعون عليه وهم أحسن من أن يذكروا لأنهم  
خالفوا المعقولات والمنقولات والمعاني وسائر الأديان التي جاءت بها الرسل  
عن الله تعالى ولا يعلم أحداً من طوائف الكفار اعتقد اعتقاد هؤلاء ، فإن  
طائفة من النصارى قالت المسيح ، بن الله وكفرهم القوم الآخرون ، وطائفة  
من اليهود قالت العزيز بن الله وكفرهم القوم الآخرون . فلم يجعلوا الوجود  
عين الله تعالى . .



## مقام الفناء

وأخطاء الحلوليين ...

تلك هي كلمة التصوف في وحدة الوجود . ولعمري إنها لأقوى الكلمات الإسلامية دفعاً لتلك النظرية الوثنية وهدماً لها ، وهي أعلى الكلمات الإسلامية استنكاراً لهول ما تنطوى عليه من كفریات وإباحیات ملعونة مرجومة ، حتى إن الشعراني ليقول : « إن إبليس نفسه وهو ملهم الخبائث لا يجروء على تلك القولة الملعونة » التي ارتكب أربابها أمراً إذا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتخرب الجبال هدا<sup>(١)</sup> .

ولسائل أن يسأل فكيف إذن نسبت إلى التصوف أو إلى بعض المتصوفة ومن أي باب أدخلها المغرضون ووثب بها الواثيون ؟ . ومن أي باب أيضاً تسلك طوائف الإفك التي رمت التصوف أو بعض المتصوفة بالحلول والاتحاد ؟ .

لقد تسلل المزيقون والمغرضون إلى المحراب الصوفي بذلك الإفك الأكبر ليطفئوا نوره ويحطمو انبراسه متخذين ومن عجب آيته الكبرى وهي المحبة ، أو مقام الفناء تكبته لأكاذيبهم الآثمة .

فالتصوف قوامه الذكر والعبادة ، والتأمل والطاعة ، وثمرته التجلي والمحبة ، وما يليهم التجلي وما تعلم المحبة ، وبين بدايته ونهايته . أحوال ومقامات ومعارج ونفحات . سرها الترقى الدائم في صفاء القلب ، وإلهامات الروح وإشراقات الحس .

وأول مقامات المتصوف المقبل على ربه ، بل أول مقامات المؤمن العابد

---

(١) من أراد التوسع في دراسة موقف التصوف الإسلامي من نظرية وحدة الوجود فليراجع ذلك في كتابنا عن « محي الدين بن عربي »



هو أن يعبد الله كأنه يراه ، فإذا عبده تلك العبادة وتحقق بجلالها ، فهل تظن أنه يرى سواه جل جلاله .

### يقول الشعرائي

« ومن يقول لا موجود إلا الله ، فذلك من مقام المرید المبتدی . لأنه من شدة تعشقه في الطريق ، وترحل قلبه عن محبة غير الله تعالى يصير قلبه محجوباً عن شهود الأكوان كما يقع لصاحب المصيبة إذا مات له ولد ، أو تلف له مال ، فإنه من شدة المصيبة يصير يدخل الدار ويخرج ولا يرى صاحبه الجالس على بابه ، فإذا سئل هل رأيت فلانا ، قال لا . فإذا قيل له : لقد كان أمامك ، قال والله من شدة الهم مارأيته . »

ثم يقول « وليس مراد المبتدی في الطريق أن ينفي وجود العالم كله كما يظن من لا علم له بأحوال أهل الطريق ، بل مراده أن الله تعالى قد أخذ حبه بمجامع قلبه حتى حجبه عن شهود خلقه .

وإذا كان النساء الآتي خرجن على يوسف عليه السلام ذهبن عن أنفسهن حتى قطعن أيديهن ولم يشعرن بألم القطع فكيف بذهول من تعلق قلبه بحب ربه وشاهد من آياته الكبرى .

وقد روى القشيري عن الشبلي أنه كان يزوو في بداية أمره شيخه الحصرى كل يوم جمعة فقال له شيخه يوماً : يا أبا بكر إن خطر في بالك غير الله تعالى من الجمعة إلى الجمعة فلا تعد تأتينا فإنه لا يجيء منك شيء . . .

ذلك هو أدب الطريق الصوفي الذي يلقنه الشيوخ للمبتدئين ، أن ينفوا الوجود عن قلوبهم بل عن خواطرهم ، لتمتليء كل جوارحهم بذكر الله وحب الله وجمال الله .

تلك معنويات عليا يتذوقها المؤمنون العابدون ، ولا شأن لها بما



أراد المظلومون الذين توهموا في هذا القول المنير وحدة الوجود ،  
أو الاتحاد والحلول .

لم ينف المتصوفة بهذا القول الإيماني العظيم وجود الكون ولم يتصوروا  
بل لم يجعل بخواطيرهم ، أن معنى ذلك وحدة أو حلول ، أنهم قوم حجبتهم  
المحبة عما سوى الله فلم يروا في الكون سواه ، مسألة حسية وجدانية ، ليس  
معناها أن الكون قد زال أو فنى ، وإنما معناها أن القلب المحب قد استغرقه  
جلال محبه الأعظم فلم ير إلا إياه .

يقول الشعراى : أجمع أهل الحق على أن حقائق الأشياء ثابتة فكيف  
يصح نفيها ، إنما العبد يحجب عنها بما دهمه من الأمور العظيمة ، قيل للشيلي  
ما التوبة ، قال : ألا تشهد فى الدارين سواه ، أى لا تشهد فى الدارين خالقا  
أو ربا أو رازقا أو مؤثرا ومدبرا سواه ، وإن شهدت ليس لأحد وساطة  
أو أثرا فى عمل ما ، فلا تلتفت إلى ذلك .

وليس معنى هذا أن لا تشهد غير الله أصلا من جميع الاكوان فان ذلك  
لا تصح للمقربين وذلك معنى قوله صلوات الله وسلامه عليه (أصدق كلمة  
قالها شاعر ، كلمة لييد )

• الأكل شىء ما خلا الله باطل ،

أى كالباطل ، من حيث أن كل شىء قائم بالله تعالى لا بنفسه ، فإن شاء  
الله أبقاه وإن شاء أذهبه فى لمح البصر أو هو أقرب . .

ذلك فناء المبتدئين أو مقام المرئدين أو حجاب السالكين فى أول  
الطريق ، يحجبون بحب الله عما سواه ، أما الكمل السادة فقد ارتفعوا فوق  
تلك المعانى ولم يقفوا مع العقبات ، بل رؤوا الله جل جلاله ورؤوا الكون  
أيضا ، وذلك كما يقول محي الدين ، أكمل ألوان العبادات .

يقول السراج الطوسى فى اللمع ، غلظت جماعة من البغداديين فى قلوبهم



أنهم عند فنائهم عن أوصافهم دخلوا في أوصاف الحق . وقد أضافوا أنفسهم  
بجهلهم إلى معنى يؤدي بهم إلى الحلول أو إلى مقالة النصارى في المسيح  
عليه السلام .

فإن وجد في كلام الكمل من المتصوفة معنى الفناء ، في الله جل شأنه  
فالمعنى الصحيح المقصود من ذلك . أن الإرادة للعبد وهي من عند الله عطية  
ومعنى خروج العبد من أوصافه والدخول في أوصاف الحق ، خروجه من  
إرادته ودخوله في إرادة الحق ، وذلك منزل من منازل أهل التوحيد .

وأما الذين غلطوا في المعنى إنما غلطوا بدقيقة خفيت عليهم حتى ظنوا  
أن أوصاف الحق هي الحق ، وهذا كله كفر ، لأن الله تعالى لا يحل في القلوب .  
ولكن يحل في القلوب الإيمان به والتوحيد له والتعظيم لذكره .

ثم يقول في اللمع أيضا متحدثا عن مقام الفناء : هو فناء رؤيا العبد في  
أفعاله لأفعاله . .

ويقول الهجوري واصفاً الفناء : بأنه فناء إرادة العبد في إرادة الله ،  
لافناء وجود العبد في وجود الله . .

ذلك هو الفيصل بين المتصوفة وخصومهم ، فالفناء الصوفي هو فناء  
معنوي . لا فناء مادي كما توهم المتوهمون .

يقول القشيري في باب الفناء « ومن استولى عليه سلطان الحقيقة حتى  
لم يشهد من الأغيار لاعتينا ولا رسما ولا طملا ، يقال أنه فنى عن الخلق  
وبقى بالحق » .

ثم يقول : وفناؤه عن نفسه وعن الخلق بزوال احساسه بنفسه وبهم ،  
فإذا فنى عن الأفعال والأخلاق والأحوال ، فلا يجوز أن يكون ما فنى  
عنه من ذلك موجوداً . وإذا قيل فنى عن نفسه وعن الخلق فنفسه موجودة



والخلق موجودون ، ولكنه لا علم له بهم ولا به وقد ترى الرجل يدخل على ذي سلطان فيذهل عن نفسه وعن أهل مجلسه هيبة حتى إذا سئل بعد خروجه من عنده عن أهل مجلسه لم يمكنه الأخبار بشيء . .

وهو فناء اجلال وحب إذن ، لافناء عين ، فناء القلب المستغرق في نواراً الجلال الإلهي عما سواه .

ويروى الشعراني في الطبقات عن الشيخ عبد الرحمن الطفسونجي وهو يشرح حال المراقبة

والمراقبة ، لعبد راقب الحق بالحق ، وتابع المصطفى صلى الله عليه وسلم في أفعاله وأخلاقه وآدابه والله عز وجل قد خص أحبابه وخاصة بأن لا يكلمهم في شيء من أحوالهم إلى نفوسهم ولا إلى غيره ، فهم يراقبون الله تعالى ويسألونه أن يرعاهم .

والمراقبة تقتضي حال القرب والله عز وجل قرب القلوب إليه بما هو قريب منها فهو يقرب من قلوب عباده على حسب ما يرى من قرب قلوب عباده منه ، فانظر بماذا يقرب من قلبك .

وحال القرب يقتضي حال المحبة ، وهي تتولد من نظر القلب إلى الله عز وجل وجلاله وعظمته وعلوه وقدرته . فطوبى لمن شرب كأساً من محبته . وذاق نعيماً من مناجاته . فامتلاً قلبه حباً فطار بالله طراباً . وهام به اشتياقاً ، ليس له سكن ولا مألوف سواه . فهو محب خرج من رؤية المحبة إلى المحبوب بفناء علم المحبة من حيث كان له المحبوب في الغيب ولم يكن هو بالمحبة ، فإذا خرج المحب إلى هذه النسبة كان محباً بلا علة . والمحبة تقتضي الذكر ، فلا يزال المحب يذكر ربه ويدخل الخلل في ذكره لنفسه حتى يصير الغالب عليه ذكر ربه . وصار كالغافل عن نفسه ثم يخفل عن ذهوله عن نفسه وينسى باستيلاء ذكر ربه عليه جميع الأحاسيس ، فيقال في عن نفسه ويقال في بربه . وهو



هنا يكون مختطفاً عن نفسه . محجواً عن جملته . فانياً عن كله ،  
سئل أبا يزيد عن عمره فقال أربع سنوات ويحب البسطامى شارحاً تلك  
الكلمة بقوله « حجبت عن الله سبعين سنة ولم أره إلا في السنوات الأربع  
الآخيرة . وعليه فالسبعون الأولى ليست من عمري »

وهذا الشعور الكامل بالتجلي الإلهي والاحساس الصادق بالحب الرباني  
يزداد حتى يبلغ الحد الأعلى فيذهب عن المحب وعيه : بل تكاد تذهب عنه  
بشريته . ليغدو جوهرأ أو كالجوهر وهي الحالة التي يعبرون عنها بالذوق  
والشرب والغيبة ويجمع ذلك كله ، كلبة الوجد .

ويعد المتصوفة الفناء في حالة الوجد نهاية سفرهم إلى ربهم فيصبح الصوفي  
هنا في قمة فوق العالم لأنه استغنى عنه .

وهذه هي حال البقاء ، والإنسان فيها إنسان كامل ، وهذا موقف لا  
يجال للقول فيه أو كما يقول الغزالي « يصل الانسان إلى حالة يضيق نطاق  
النطق عن وصفها ،



## مقام الفناء وابن تيمية

ومن عجب أن مقام الفناء الذى اتهم فيه المتصوفة بوحدة الوجود تارة والاتحاد والحلول تارة أخرى ، مقام من صميم التوحيد الإسلامى ، بل هو المقام الذى تركز عليه العبادات الربانية كافة حتى إن ابن تيمية وهو خصم التصوف الأكبر ليخصص لشرجه فى كتبه مكاناً لم يخصصه لغيره من مواقف الفكر الإيماني .

يقول الإمام ابن تيمية فى كتابه العبودية <sup>(١)</sup> متحدثاً عن مقام الفناء . الفناء فى المحبة الإلهية .

( الفناء عن إرادة ما سوى الله . بحيث لا يحب إلا الله . ولا يعبد إلا إياه . ولا يتوكل إلا عليه . ولا يطلب من غيره . وهو المعنى الذى يجب أن يقصد بقول الشيخ أبى يزيد حيث قال . أريد أن لا أريد : أى المراد المحبوب المرضى ، وهو المراد بالارادة الدينية . وكال العبد . أن لا يريد ولا يحب ولا يرضى إلا ما أَرَادَهُ اللهُ . ورضيه وأحبه وهذا معنى قولهم فى قوله تعالى — إلا من أتى الله بقلب سليم — قالوا هو السليم مما سوى الله . أو مما سوى عبادة الله أو مما سوى إرادة الله . أو مما سوى سوى محبة الله . فالمعنى واحد . وهذا المعنى إن سُمي فناء أو لم يسم . هو أول الاسلام وآخره . وباطن الدين وظاهره ) .

ثم يتحدث ابن تيمية عن المقام الثانى فى مقامات الفناء فيقول :  
« وأما النوع الثانى . فهو الفناء عن شهود السوى وهو يحصل لكثير من السالكين . فإهم لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته



ضعفت قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد . وترى غير ما تقصد . لا يخطر  
بقلوبهم غير الله . بل ولا يشعرون . كما قيل في قوله تعالى — وأصبح فؤاد  
أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها — قالوا فارغاً  
من كل شيء . إلا من ذكر موسى . وهكذا كثيراً ما يعرض لمن دهمه . أمر  
من الأمور إما حب وإما خوف وإما رجاء . يبقى قلبه منصرفاً عن كل شيء  
إلا بما قد أحبه أو خافه أو طلبه . بحيث يكون عند استغراقه في ذلك لا  
يشعر بغيره فإذا قوى على صاحب الفناء هذا ، فإنه يغيب بوجوده عن وجوده  
وبمشهوده عن شهوده . وبمذكوره عن ذكره . وبمعروفه عن معرفته حتى  
يفنى من لم يكن : وهى المخلوقات المبعدة من سواه . ويبقى من لم يزل وهو  
الرب تعالى والمراد فناؤها في شهود العبد وذكره . وفناؤه عن أن يدركها  
أو يشهداها . وإذا قوى هذا ضعف المحب حتى يضطرب في تميزه . فقد يظن  
أنه هو محبوبه . كما يذكر أن رجلاً ألقى نفسه في اليم فألقى محبه نفسه خلفه .  
فقال : أنا وقعت فما أوقعك خلقي : قال : غبت بك عنى . فظننت إنك إني ) .  
أليست تلك المقامات من حالات الفناء . هى المقامات التى يرمى فيها  
المتصوفة بوحدة الوجود .

يقول ابن تيمية خصم التصوف الأكبر . ( فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم  
إلى ذكر الله وعبادته ومحبته ضعفت قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد .  
وترى غير ما تقصد ) .

وهل قال المتصوفة أكبر من هذا القول ومن عجب أن ابن تيمية يهاجم  
التصوف والمتصوفة لأنهم يقولون : إنهم فى نشوتهم الكبرى لا يرون إلا الله  
ويذهلون عما سواه ، أى نفس ما يقول ابن تيمية .  
إنهم ليرون الله فى كل شيء . ومع ذلك يوقنون بأنه سبحانه فوق كل  
شيء . وهذا أكمل درجات التوحيد .



ويقول ابن تيمية أيضا في مجموعة رسائله<sup>(١)</sup> وأما قول الشاعر في شعره  
أنا من أهوى      ومن أهوى أنا  
فهذا إنما أراد به الشاعر الاتحاد المعنوي . كاتحاد أحد المحبين بالآخر ،  
الذي يحب أحدهما ما يحب الآخر ، ويبغض ما يبغضه . ويقول مثل ما يقول  
ويفعل مثل ما يفعل . وهذا تشابه وتماثل . لا اتحاد العين بالعين . إذا كان  
قد استغرق في محبوه . حتى فنى به عن رؤية نفسه ، كقول الآخر .  
غبت بك عنى      فظننت أنك أنى

فهذه الموافقة . هي الاتحاد السائغ .

ويقول ابن تيمية أيضا في الرسائل ( روى البخارى في صحيحه عن أبى  
هريرة عن النبي بقوله تعالى — من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة —  
فقوله من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة . فجعل معاداة عبده الولى  
معاداة له فعين عدوه عين عدو عبده . وعين معاداة وليه عين معاداته .  
ليساهما شيئين متميزين ) .

ويذكر أيضا ابن تيمية حديثا رواه مسلم في صحيحه عن أبى هريرة عن  
النبي . يقول الله تعالى « عبدى مرضت فلم تعدنى . فيقول يارب كيف  
أعودك وأنت رب العالمين . فيقول : أما علمت أن عبدى فلانا مرض  
فلو عدته لوجدتني عنده . عبدى جعت فلم تطعمنى فيقول : رب كيف  
أطعمك وأنت رب العالمين . فيقول : أما علمت أن عبدى فلانا جاع فلو  
أطعمته لوجدت ذلك عندى . »

ولم أجد رداً على خصوم المتصوفة الذين هاجمواهم في مقام الفناء وتسلموا



منه إلى اتهامهم بوحدة الوجود، وفكرة الاتحاد والحلول، أبلغ من هذا التفصيل الرائع لمقامات الفناء الذي كتبه ابن تيممة خصم التصوف الأكبر، والذي رعى المتصوفة بوحدة الوجود. وقد فهم بالاتحاد والحلول متخذاً برهانه من كلامهم في الفناء والمحبة.

ولم أجد شاهداً أكبر دلالة مما استشهد به هو من القرآن الكريم «وأصبح فؤاد أم موسى فرغاً، أي فارغاً مما سوى موسى».

وقلب المتصوفة لشدة حبهم لربهم، أصبح فارغاً مما سوى الله جل جلاله. وربنا سبحانه أكبر وأعظم من أن يشبهه بعبد من عباده أو برسول من رسله وليقل بعد ذلك المغرضون ما شاؤوا...



## جهاد الشعراني

### السبحات الفلسفية والتصوف

لقد حمل الشعراني أعباء رسالة عليية إصلاحية ، ما أظن أن صوفيا سواه ، بل لا أعتقد أن عالما من المفكرين الإسلاميين حمل مثلها أو قام بشيبه لها . تلك الرسالة هي التوفيق بين شتيت الآراء والمذاهب والأفكار الإسلامية ، والتقريب بينها بتنقيتها من التطرف ، وإبعاد الدخلاء والزائفين عن ساحاتها ، وباتخاذها دائما موقفا وسطا محددأ كالصراط المستقيم . عمل الشعراني على التوفيق بين الفقه والتصوف . أوبين الشريعة والحقيقة كما يقال في الاصطلاح ، وخصص لذلك الجانب الأكبر من دراساته وكتبه . كما جاهد للتوفيق بين التصوف ، وبين رجال الكلام والتوحيد ، وأصحاب النظر العقلي من الفلاسفة والمتكلمين ، يقول الشعراني في كتابه الميزان « وحاولت المطابقة بين عقائد أهل الكشف وعقائد أهل الفكر حسب طاقتي ولم يسبقني إلى ذلك أحد . .

وبذلك اتفق الشعراني مع الغزالي في ناحية ، واختلف معه في الناحية الأخرى ، فقد سعى الغزالي جاهدا من قبله للتوفيق بين الفقه والتصوف ولكنه في الناحية الأخرى حارب الفلسفة بعنف وقسوة لم يهادنها ولم يقبل معها تفاهما ، ولم يرض لها حجة .

وهذا الموقف الذي اتخذته الشعراني شعارا له ؛ اضطر مكرها للحاربة والصراع في كافة الميادين الفكرية والساحات العلية .

فقد حارب الشعراني وحورب من أذعياء التصوف ، من المجاذيب والبهاليل والدرأويش ، وكانوا أصحاب الجاه والسطوة في عهده .



كما حارب وحورب من الفقهاء المتزمتمين الذين جمدوا على آراء وكتب  
أغرمت بالافتراض، وأولعت بالجدل والحوار وملئت بكل غريب وشاذ،  
وحارب وحورب من رجال الكلام الذين ملقوا الدنيا صياحا وهتافا بأنهم  
وحدهم سدنة الإيمان وحجابه، وأن الإيمان الحقيقي الذي يقبله الله هو  
ما ابتكرته أقلامهم، وما اشترطوا له من قيود وسدود وحدود.

كما حارب الشعراني أيضا المتفلسفين من رجال التصوف ونازلهم منازل  
قاسية، حتى إننا لنراه أحيانا يهاجم محي الدين، وهو المحب الأكبر والتلميذ  
الأمين لمحي الدين. ويهاجم الغزالي مع إجلاله العظيم لحجة الاسلام، ويهاجم  
جمهرة من سادة المتصوفين القدامى مع احترامه لهم وتقديره. ولكن  
الشعراني يهدف لغاية أكبر من الحب والإجلال، والتقدير. للسابقين من  
المتصوفة. كان يهدف إلى حماية العقول العامية وأشباه العامية في عهده من  
صولة الآراء الصوفية، وهي صولة لا يعرفها إلا من ذاق وعرف. وهي  
صولة أكبر من أن تطبقها العقول الضعيفة، أو تحتملها القلوب الجامدة.

وعصر الشعراني كان لا يطبق تلك الصولة القوية للآراء الصوفية العليا،  
فعمل الشعراني للصالح العام، ولم يلق بالا إلى عواطف الحب والاحترام.  
فقام بهجومه الكبير القوي على كلمات التصوف المجنحة، وعباراته الرحيبية  
الأفق التي تحمل أكثر من معنى وتؤدي إلى أكثر من غاية.

يقول الشعراني: وبالجملة فلا تحل قراءة كتب التوحيد الخاص وكتب  
العارفين إلا لعالم كامل أو من سلك طريق القوم، وأما من لم يكن واحدا  
من هذين الرجلين فلا ينبغي له مطالعة شيء من ذلك خوفا عليه من إدخال  
الشبه التي لا يكاد الفطن أن يخرج منها فضلا عن غير الفطن.



ثم يقول :

ولكن من شأن النفس كثرة الفضول ومحبة الخوض فيما لا يعينها وقد وضع بعض العلماء من السلف كتاباً جمع فيه كثيراً من الكلمات التي ينطق بها العوام بما يؤدي إلى الكفر وحذر فيه من النظر في جملة من الكتب ، وقد حيب إلى أن أذكر لك طرفاً من ذلك لتتجنب النطق به والنظر فيه ، فأقول وبالله التوفيق :

• وما يقع فيه كثير من الناس قولهم — يا من يرانا ولا يراه — وقولهم ( يا ساكن هذه القبة الخضراء ) وقولهم — سبحان من كان العلا مكانه — ونحو ذلك ، مما لا يجوز التلفظ به لما يورث من الإبهام عند العوام ، وأن الله تعالى مكاناً خاصاً ، وإن قال هذا القائل أردت بقولي ، ولا يراه ، عدم رؤيتنا له في الدنيا ، قلنا له قد أطلقت القول ، والإطلاق في محل التفصيل خطأ . وقد أجمع أهل السنة على منع كل إطلاق لم ترد به الشريعة ، سواء كان في حق الله تعالى أو في حق أنبيائه ، أو في حق دينه ، وكان الشيخ أبو الحسن الأشعري يقول ، ما أطلق الشرع في حقه تعالى أو في حق أنبيائه أطلقناه . وما منع منعناه وما لم يرد فيه إذن ولا منع نظرنا فيه . فإن أوهم ما يمنع في حقه تعالى منعناه وإن لم يوهم شيئاً من ذلك رددناه إلى البراءة الأصلية ، ولم نحكم فيه بمنع أو بإباحه فقد اتفق الإمامان على منع كل إطلاق يوهم محظوراً في حق الله تعالى ، وتبعهما العلماء على ذلك قاطبة . وكذلك منع من يقول . . . يادليل الخائرين ، يادليل من ليس له دليل — ونحو ذلك وكله لم يرد به شيء . وقد أجمع أهل الحق على وجوب تأويل أحاديث الصفات كحديث ينزل ربنا إلى سماء الدنيا . وقد بلغ بأحد الضالين أن يقول وكان على المنبر فنزل درجاً منه وقال للناس ، ينزل ربكم عن كرسيه إلى سماء الدنيا كنزولي عن منبري هذا ، وهذا جهل ليس فوقه جهل .



وما يمنع شرعاً إطلاق بعضهم على الله تعالى - الخمار - والساقى - وراهب  
الدير - وصاحب الدير - وليلى ، ولبنى وسعدى ، وإسماء . ودعد . وهند ،  
والكنز الأكبر ، ونحو ذلك ، وكذلك لا يجوز إجماعاً إرادته ذاته تعالى  
بقول بعضهم .

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا  
وقول بعضهم :

تمازجت الحقائق بالمعاني فصرنا واحداً روحاً ومعنى  
فكل هذا وأمثاله لا يجوز عند أهل السنة والجماعة وقد سألت سيدي  
علياً الخواص عن التغزلات التى فى كلام القوم ، هل مرادهم بها الله تعالى .  
فقال . لا . إنما مرادهم بها الخلق . ولكن يفهم الفاهم منها فى حق الحق  
ما يبعثه عند سماعها إلى الحضور مع الحق .

قال : لأن أولياء الله تعالى أعرف الخلق بالله تعالى بعد الرسل والأنبياء  
عليهم الصلاة والسلام ويحلون الحق تعالى عن أن يجعلوه محلاً لتغزيلاتهم .  
فلذلك ضربوا الأمثال بالمحبين والمحبوبين . من قيس ولبنى ونحو ذلك .

وكذلك مما ينبغى اجتنابه قول بعضهم - ما فى الوجود إلا الله -  
وقولهم - إن الله فى قلوب العارفين - وإنما الصواب أن يقال : ما فى  
الوجود فى الأزلى إلا الله : ومعرفة الله فى قلوب العارفين . وإليه الإشارة  
بحديث ( وسعى قلب عبدى المؤمن ) أى وسع معرفتى من غير إحاطة بى  
وكذلك مما ينبغى اجتنابه قولهم - هذا زمان سوء - لأن الزمان هو  
الدهر والدهر هو الله ، وكذلك قول بعض الخطباء سبحان من لم يزل  
معبوداً . لأنه عبد عند من لم يعلم كونه معبوداً بالقوة ، أى أهلاً لأن يعبد  
لأنه يومهم قدم العالم ، وذلك كفر .

وما يجب اجتنابه قولهم - يا قديم الزمان - لأن الرب لا يتقيد



بالزمان . فهو كلام باطل . وكذلك قول بعضهم — كل ما يفعله الله خير —  
لا يهامه نفي وجود الشر في العالم ، وإن كل ما يكسبه العبد من المعاصي خير  
وكذلك قول فلان ، يطلع على الغيب — لأنه يوهم باطلاً — وإنما الأدب  
أن يقال . فلان له فراسة صادقة . أو كشف أو اطلاع فقط . لتلاين احم  
الرسل في مقام العلم والقطع . فإنه ليس للأولياء إلا الظن الصادق فقط ،  
الذي هو في اصطلاح عبارة عن الإعتقاد الصحيح الجازم المطابق للواقع  
فقط . وهذا الظن هو الذي يسمونه إلهاما وفتحاً وكشفاً

وكذلك مما يجتنب قوله . قول بعضهم — باعك الله — وأقلك الله .  
إذا اشتغل في البيع أو الإقالة . لأنه يوهم مذهب أهل الاتحاد . وذلك كفر  
قال الامام العلامة عمر بن محمد الأشيبلي في كتابه المسمى (لحن العوام)  
وليحذر من العمل بمواضع من كتاب الأحياء للغزالي ومن كتاب النفخ  
والتسوية له . وغير ذلك من كتب القوم . فإنها إما مدسوسة عليه أو  
وضعها في أوائل أمره . ثم رجع عنها كما ذكر في كتابه — المنقذ من  
الضلال . —

وكذلك يحذر من مواضع في كتاب ( القوت ) لأبي طالب المكي نحو  
قوله — الله تعالى قوت العالم — ومن مواضع في تفسير ( مكي ) ومن  
مواضع كثيرة في كلام ابن ميسرة الحنبلي . .  
ويعدد الشعرا في كتباً كثيرة ثم يقول .

« وليحذر أيضاً من مطالعة كتب الشيخ محي الدين بن عربي رضي الله  
عنه ، لعلو مراقبها ولما فيها من الكلام المدسوس على الشيخ ، لاسيما  
الفصوص . والفتوحات المكية . فقد أخبرني الشيخ أبو طاهر عن شيخه  
عن الشيخ بدر الدين بن جماعة . أنه كان يقول « جميع ما في كتب الشيخ



حجي الدين من الأمور المخالفة لكلام العلماء مدسوس عليه . وكذلك كان يقول . الشيخ مجد الدين صاحب القاموس .<sup>(١)</sup>

ويوالى الشعراني حملته الكبرى فيقول :

« وليحذر أيضاً من مطالعة كتب عبد الحق بن سبعين بما يؤهم الحلول والاتحاد والتشبيه وأقوال الملحدين . ومنع بعضهم من سماع كلام سيدي عمر بن الفارض في التائية . والجمهور على جواز ذلك مع التأويل . »

ويختم الشعراني تلك الدراسة المؤمنة الصادقة التي يهدف بها إلى حماية العوام وأشباه العوام من صولة التصوف والمتصوفة بقوله .

« فهذه عدة نصح وتحذيرات قد سقتها إليك . فزنها بميزان الشرع . وعليك بمطالعة كتب الشريعة من حديث وتفسير وفقه والأقتداء بأئمة الدين من الصحابة والتابعين وتابع التابعين ومقلديهم من الفقهاء والمتكلمين . وإياك والاجتماع بهؤلاء الجماعة الذين تظاهروا بطريقة القوم ،

والشعراني وهو يهاجم التفلسف في التصوف . ويرفع الستار عن الدخيل والمدسوس على المتصوفة ، لا ينسى أبداً رسالته كصوفي ولا ينسى أن يكشف الستار عن حقائق العلم الصوفي الصادق الذي صدر عن وجد وحب أو عن ذوق رفيع واصطلاح صوفي يدق على من لم يتذوق الحان القوم ومقاصدهم .

ولهذا فهو يعقب على حملته بدفاع حار عن أقطاب التصوف وعن كلمات لهم أو اصطلاحات أولها الناس فخر جوا بالتأويل عن مقاصدهم وأهدافهم .

ومن هذا القبيل ، كلمة حجة الإسلام الغزالي المشهورة — ليس في الإمكان أبدع مما كان — والتي أتخذها ابن تيمية وسيلة لتجريح الغزالي



والتهمك به ، بدعوى أن في هذا القول ما يشبه الحجر على قدرة الله في الابداع المستمر .

يقول الشعراني : كلمة الغزالي كلمة مؤمنة صادقة وإن جهلها خصومه لأن جميع الممكنات أبرزها الله على صورة ما كانت في علمه تعالى القديم ، وعلمه القديم لا يقبل الزيادة ، وفي القرآن الكريم - أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

ودافع أيضاً عن شيخه الأكبر محي الدين بن عربي وأوضح ما يريد من قوله في الفتوحات وغيرها - حدثني قلبي عن ربي . أو حدثني ربي عن قلبي . أو حدثني ربي عن نفسه تعالى : بارتفاع الوسائط .

يقول الشعراني : ليس مراده ، أن الله تعالى كلمه كما كلم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وإنما مراده أن الله تعالى يلهمه على لسان ملك الإلهام بتعريف ببعض أحوال . فهو من باب قوله صلى الله عليه وسلم : إن يكن في أمتي محدثون فعمر .

ثم يقول الشعراني ، ومما نقل عن القوم . قولهم : اللوح المحفوظ هو قلب العارف ، ليس مرادهم نقي اللوح المحفوظ وإنما مرادهم أن قلب العارف إذا انجلي ارتسم فيه كل ما كتب في اللوح المحفوظ نظير المرآة إذا قابلها لوح مكتوب .

وقولهم أيضاً ، دخلنا حضرة الله وخرجنا عن حضرة الله . ليس مرادهم بحضرة الله عز وجل مكانا خاصا معينة فإن ذلك ربما يفهم منه التحيز للحق ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، وإنما مرادهم بالحضرة حيث أطلقوها شهود أحدهم أنه بين يدي الله عز وجل . فما دام يشهد أنه بين يدي ربه عز وجل فهو في حضرة . فإذا حجب خرج عن حضرة تعالى . وللشعراني في هذا الباب إسهاب وتفصيل لم يسبق إليه .



وبذلك أنصف الشعراني التصوف الصادق بدفاعه الصادق كما أنصف  
الحقيقه بهجومه على كل من شطح أو تفلسف فأوهم كلمه ما يחדش الايمان  
أو يتنافى مع حقائق الاحسان .

وكان الشعراني في الموقفين كعهده أبدا على الجادة الواضحة والصراط  
المستقيم . والطريقة الوسطى .



## بين الشعراى وادعاء التصوف

فساد التصوف فى عصره

خضعت مصر لحكم المماليك حقبة طويلة كانت فيها على غير فطرتها ونهجها التاريخى فصر منذ فجر التاريخ، أمة مفكرة، مؤمنة عابدة، فهى أول أمة اهتمت إلى التوحيد وعبدت الله جل جلاله على نوره. وهى أول أمة شيدت للعبادة وللروحانية أضخم وأجل ما عرفت الإنسانية من معابد وهيا كل مقدسة.

وإلى مصر لجأت وعاشت وازدهرت اليهودية والمسيحية والإسلامية وفى مصر عاش موسى وعيسى ويوسف، وغيرهم من الأنبياء الذين قص الله سبحانه قصصهم فى القرآن، وغيرهم ممن لم يقصص.

فالتاريخ الروحى لمصر. تاريخ حافل. بل هو التاريخ الغالب، بل هو سرها التاريخى الذى أمدها دائما بالحوية والقوة، وإذا فقدت مصر هذا السر يوما، فقد فقدت روحها، أو بالتالى فقدت حياتها العزيزة الكريمة. ثم هبط أرض مصر العنصر القوقازى، هبط أفراداه أذلاء أرقاء، وماهى إلا دورة من دورات التاريخ حتى أصبح المماليك سادة مصر وحكامها وأصبح عرش مصر نهبا لكل وائب بسيف وصائل برمح وضارب بسهم.

وأسس المماليك فى مصر قوة حربية من أعظم القوى التى عرفها العالم الإسلامى، بل من أعظم القوى فى تاريخ العسكرية العالمية.

ولكن المشاعل الجلية، والمصاييح الإيمانية التى كانت تضىء لمصر، وتضىء من مصر للعالم أخذ نورها يخبو فى عهد المماليك، بل أخذ نورها يفتى ويتبدد، وتخنقه الظلمات، فما كان المماليك يوما من الأيام رجال ففكر



أو علم ، وما كان لهم طاقة على العلم والفكر ، وما كانت تصوراتهم عن الدين إلا تصورات جاهلة حمقاء ، انحصرت في دائرة واحدة هي دائرة التعصب الحاد الأحمق للإسلام دون فهم له ، أو استنارة بآدابه ونهجه .  
وامتد حكم المماليك وطالت أيامه ، فأخذت القبضة الفولاذية تضعف وأخذ التناحر على الحكم بينهم يشتد ويعنف . وغدت مصر مرتعا لأقصى أنواع النهب والسلب وأشد أنواع الظلم والاستبداد فلم يعد هناك حصانة لمال أو عرض أو حياة ، بل كل شيء للاقوى ولا شيء أبداً للضعيف العاجز .

وانعزلت مصر عن العالم ، وأقيم بينها وبين الحضارات العالمية سدود وقيود ، وبعدت مصر عن ينابيع الهدى الإيماني الإسلامي . فقامت دولة الخرافة والأسطورة ، وساد العصر الذي يسمى بحق عصر الدراويش . أو دولة الأولياء الكاذبين ، وهو العصر الذي لا تزال بقاياه تشهد في بعض مواكب رجال الطرق الصوفية التي تذرع ريف مصر بطبوعها الساذجة ، واعلامها الممزقة . وأهدافها الأسطورية البدائية .  
العصر الذي لا تزال بقاياه تشهد في تلك المهازل التي تحف بأضرحة الأولياء في القاهرة وعواصم المدن ، المهازل التي يسمى أصحابها بالدراويش والمجازيب وضاربي الرمل وكاشفي الغيب ، وصانعي المعجزات ١١٢٢  
ومن عجب أن الدين الإسلامي ، وهو الذي ابتعث البدو الأميين من صحاريهم ، ليكونوا هداة عالميين في ساحات العلم والحضارة وما إلى العلم والحضارة ، وقوادا فاتحين في ميادين الحرب والجهاد وما إلى الحرب والجهاد ، قد تحول في مصر في أواخر عهد المماليك ، أو حوله أصحابه إلى مجموعة ضخمة هائلة من البدع والخرافات والأساطير الذليلة ، إلى مجموعة ضخمة هائلة من الغموض والابهام والتحلل من الاخلاق والتبرد على الآداب والشعوذة السمجة الوقحة .



وتستر الدجالون والمشعوذون والمتحللون وراء التصوف يتخذونه شعاراً ودثاراً وحماية لهم ، وباسم هذا التصوف الزائف ارتكبت أشنع الجرائم ضد الدين ، ونهبت الأموال ، وهتكت الأعراض ، وهدمت الفرائض وأهدرت الآداب .

وبعد أن كانت علة التصوف في عصور الارتفاع العلمي ، هي السبحات الفلسفية التي دسست عليه وتسربت إلى مجراه من الفلسفات العالمية المحيطة به ، أصبحت علة التصوف هي تلك العامية المتحللة من الاخلاق ، المتهاككة على الشهوات المهذرة لكل المقدسات .

حتى رأينا من يخاطب على المنابر عارياً ، ويخطب في الناس قائلاً : السلطان ودمياط وباب اللوق وبين الصورين وجامع طولون والحمد لله رب العالمين ، فيحصل للناس بسط عظيم فيما يرويه رجال التاريخ<sup>(١)</sup> .

ومن يقرأ ما يزعم أنه قرآن كريم مترنماً على طريقة قراءة القرآن وما أتم في تصديق هود بصادقين ولقد أرسل الله لنا بالمؤتفكات يضربوننا ويأخذون أموالنا ومالنا من ناصرين<sup>(٢)</sup> .

ثم يعقب على ذلك قائلاً : اللهم اجعل ثواب ما قرأناه من الكلام العزيز في صحائف فلان وفلان .

ويعقب الشعراني على ترجمته قائلاً : ولم أسمع أحداً ينسكرك عليه شيئاً من حاله . بل يعدون رؤيته عيداً عندهم .

وجاء الشعراني كما يجيى المطر للأرض المجدبة التي يريد الله أن يعيها ويحييها لينفع بها عباده .

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٦٠ وعلى مبارك ج ٦ ص ٢٣

(٢) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٤



جاء الشعراني في اللحظة الحاسمة التي يهبها الله جل جلاله لخلق له لتكون  
فاصلا بين عهدين، وفضلا بين فكرتين، وبداية لصفحة جديدة وحياة جديدة .  
جاء الشعراني فرأى أمة تسبح في الظلمات ، ورأى دولة الدراويش ،  
دولة الإقطاع الروحي تمرح في الشهوات . وشاهد مدعى الولاية الكاذبين  
ومتزعمي الطرق الصوفية المضللين . وليس فيهم أو بينهم مصباح واحد يرسل  
شعاعا من نوره ليهدي الحيارى إلى الله .

فأوقف قلبه ولسانه ، وعقله وحياته . على الجهاد الأكبر لتطهير المحراب  
الصوفي من الدجل والشعوذة وتحويل التيار الأعظم المندفَع إلى الهاوية  
إلى الجادة المستقيمة الواضحة .

ولم تكن الرسالة هينة . ولم تكن الغاية مأمونة السبل . فالطريق شاق  
مهلك تقوم فيه الأشواك وتعمره الأهوال ، وتغمره الزلازل والمتاعب .  
والشعراني لم يكن في مناعة من حياته . بل كانت تنوشه أقلام الفقهاء  
وأسنتهم . فقد جاء مزلزلا لمسكاتهم محطما لصوتهم . وتخدشه أنياب رجال  
الكلام وأظفارهم ، فهو معهم في معركة لم يهدأ أوارها بعد . ويرمقه رجال  
الحكم والولاية بعين الحذر والغضب ، فهو دائما ينازعهم الأمر . منتصرا  
للضعفاء ومن في حكم الضعفاء من أصحاب الحاجات وما أكثرهم .

والصيحات تأخذه من كل جانب ولحترفي التصوف دولة ولزعمايهم  
صولة ومكانة شعبية لا تسامى ولا تضارع .

ولكن الشعراني رغم سياسته التي سنعرض لها بعد ، ورغم ليونة قلمه  
في جداله مع الفقهاء وحواره مع رجال التوحيد والكلام لم تزل له الأهوال  
التي تحف به ، بل تقدم إلى المعركة الكبرى عنيفا قاسيا على غير عادته .  
لأنه يعلم علم اليقين . أنه ينازل فئة هي أخطر على الإسلام ومقدساته



من كل خصم وعدو . تقدم ليحطم الهيكل المندس على عياده . وليقوض  
الصرح الظالم على اللائذين به والممتنعين إليه .

ثم ليبنى على الانقاض صرح الايمان الصادق وهيكل التصوف الذى هو  
قمة الايمان ، وخالصة الدين ، ونوره الوضاء المبين .

وفى سبيل هذه الغاية المقدسة ألف الشعرائى كتابه العظيم « المنن »  
لا ليتحدث عن نفسه ولا ليباهى بأخلاقه وأعماله ومقاماته ، كما ظن بعض  
المستشرقين والسائرين تحت ألويتهم من كتابنا المحدثين . ولكن ليضع أمام  
أدعياء التصوف . وليضع أمام الامة الاسلامية التى خدعت فى هؤلأه الأدعياء  
المثل العليا للأخلاق المحمدية ، والمثل العليا للآداب الربانية ، فقد كان رسول  
الله صلوات الله وسلامه عليه خلقه القرآن كما تقول السيدة عائشة رضوان  
الله عليها وكل متصوف صادق هو على سنن نبيه العظيم وعلى هدى رسوله  
الكريم - لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة .

والمنن من الناحية الموضوعية أعظم كتاب أخلاقى فى تاريخ العربية . بل  
لعله أعظم كتاب للمثاليات الإيمانية الصوفية فى تاريخ التعبد الإسلامى .  
فلقد رسم الشعرائى فى كتابه الفذ الخطوط العليا العريضة للآداب  
الاسلامية من وجدانية ونفسية وعملية . كما رسم الخطوط العريضة الواضحة  
لما يقابلها من سيئات منحدره هابطة إلى أسفل . وما يحف بها من شهوات  
وما يلوذ بها من أحقاد النفس ووسائل القلب وما يعترك فى الطبع الانسانى  
من غل وحسد وشهوات .

فالمنن إذن من الناحية الفنية ، فيصلا مبيناً بين التصوف الصادق الذى يرتكز  
على الخلق المحمدى . وبين أدعياء التصوف الهابطين بأخلاقهم وأعمالهم إلى  
ما ينكره الاسلام ويبرأ منه الايمان ولا يرضى عنه الخلق الكريم .



ولا يضير الشعرانى أنه عمد في بعض فصول هذا الكتاب إلى ما يشبه  
الاسلوب العامى . أو الوعظ القصصى ، فلقد هدف الشعرانى منذ خط السطر  
الاول فى هذا الكتاب إلى مخاطبة الجماهير العامة فى عصره وهى الجماهير التى  
ضللها أدعياء التصوف . وعبث بها الاقطاعيون الروحانيون .

والجماهير العامة فى كل الأمم وفى عصر الشعرانى خاصة لا يصلح لها  
سوى هذا الاسلوب السهل الرقراق . وسوى هذا اللون من الارشاد  
والتوجيه المبين الواضح القريب من القلوب والارواح .

بل لعل هذا اللون من البيان الذى يشبه الدررشة الكلامية هو الاسلوب  
الحكيم الذى لا أسلوب سواه يصلح للغاية التى هدف إليها الشعرانى ، ورسم  
خطوطها ، وحدد أهدافها .

يقول الشعرانى فى مقدمة هذا الكتاب .

فهذه جملة من النعم والاخلاق التى تفضل الحق تعالى بها على أوائل  
دخولى فى محبة طريق القوم رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، كان الباعث لى على  
تأليفها ورقمها فى هذه الطروس أموراً : أحدها ليقنتدى بي اخوانى فيها ، وكنت  
أمرهم بالتخلق بها فلا يسمعون ، فقال لى يوماً جماعة منهم هذه الأخلاق التى  
تأمرنا بها لا نجد أحداً تخلق بها من أهل عصرناحتى تقنتدى به فيها . فاستخرت  
الله تعالى وأظهرت لهم تخلقى بها فاتبعونى عليها وما بقى لكم حجة فى ترك  
التخلق بها فلولا ذلك لربما كان الكتمان لها أولى .

علم الشعرانى أن الأخلاق العالية لا بد أن يكون لها رمز تتمثل فيه ،  
لنشاهدها الأعين حية متحركة قائمة بين الناس ، وعلم أن أصحابه وأهل عصره  
لا يمكن أن يتحملوا تلك الثورة الايمانية التى يبشر بها ويحمل أعلامها ، فرمز



لهذه الأخلاق بنفسه . هذه الأخلاق التي قال معاصروه عنها ، إنهم لم يروا  
أحداً متخلقاً بها .

وليس معنى هذا أن الشعراني كان بعيداً عن هذه الأخلاق أو كان  
مدعياً في نسبتها إلى نفسه ، ولكننا قصدنا أنه صاغها على نفسه ليكون وقعها  
في معاصريه أكمل وأتم .

وفي سبيل هذه الغاية العليا أيضاً ألف الشعراني كتابه الفريد البديع  
(لوائح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية) .

والعهود المحمدية التي عناها الشعراني هي خلاصة الدين الرباني أو صفوة  
الأخلاق المحمدية ، وكل أخلاقه صلوات الله وسلامه عليه صفوة .

ولقد وضع الشعراني هذا الكتاب ، ليظهر الفرق الشاسع بين أخلاق  
رسول الله ﷺ وهو المثل الأعلى لكل مسلم وهو الإمام الأكبر لكل  
صوفي ، وبين أخلاق الشيوخ المتصدرين لقيادة مواكب التصوف الزائف  
حتى يخصص الحق ، وينبلج الصبح المنير ، ويتبين كل من ينشد الهدى ،  
هل هؤلاء الشيوخ المتصدرون لقيادة التصوف ، أذعياء جهلة أم  
مؤمنون برة . . ؟

يقول الشعراني في مقدمة هذا الكتاب :

« هذا كتاب نفيس لم يسبقني أحد إلى وضع مثاله ، ولا أظن أحداً  
نسج على منواله ، ضمنته جميع العهود التي بلغتنى عن رسول الله من فعل  
المأمورات وترك المنهيات .

وكان الباعث لي على تأليفه مارأيته من كثرة تفتيش الاخوان على  
ما نقص من دنياهم ولم أر أحد منهم يفتش على ما نقص من أمور دينه إلا  
قليلاً فأخذتني الغيرة الإيمانية عليهم وعلى دينهم فوضعت لهم هذا الكتاب



المنبه لسلك انسان على ما نقص من أمور دينه ، فمن أراد من الاخوان أن يعرف مذهب من دينه فليتنظر في أي عهد ذكرته له في هذا الكتاب ويتأمل نفسه ، يعرف يقينا ما أخل به من أحكام دينه فيأخذ في التدارك أو التدم والاستغفار .

ثم اعلم يا أخى أن طريق العمل بالكتاب والسنة قد توعرت في هذا الزمان وعز سالكها لأمر عرضت في الطريق يطول شرحها حتى صار الانسان يرى الاخلاق المحمدية فلا يقدر على الوصول إلى التخلق بشيء منها فلذلك كنت أقول في غالب عهود الكتاب ، وهذا العهد يحتاج من يعمل به إلى شيخ يسلك به الطريق ويزيل من طريقه الموانع .

وفي سبيل الغاية التي رسمها الشعراني وهي الثورة على أدعياء التصوف ورسم المثل العليا للتصوف الصادق القائم على الكتاب والسنة ألف كتابه الصوفي الرائع - الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية - خصصه لتوضيح المناهج الصوفية النقية ، والصلات التي تربط الشيخ بالمريد والمريد بالشيخ ، والآداب الواجبة على كل منهما ، كما شرح فيه معاني الإلهام الصوفي ودقائق ورقائق الطريق الرباني وما فيه من أنوار وما تتطلبه تلك الأنوار من آداب وأخلاق . لأن النور ثمرة الخلق . والإلهام ثمرة العبادة الصادقة والطاعة المؤمنة .

يقول الشعراني في مقدمة هذا الكتاب .

« وقد سألت بعض الفقراء - الصوفية - من الاخوان نفع الله بهم أن أملى جملة من آداب العبودية ، آداب الفقراء عموماً وخصوصاً ، وما يدخل على كل طائفة من الدسائس في مقاصدهم لأن الشيطان لهم بالمرصاد ولا ينجو منه إلا القليل من عباد الله . »



ولم نذكر هذه الكتب الثلاثة على سبيل الحصر وإنما ذكرناها على سبيل الرمز والمثال ، فالحقيقة أن كل كتب الشعراني التي أربت على المائة لم تخل من هذا التوجيه ، ولم تخل من هذا اللون من التوضيح والإرشاد .

هذا هو جانب البناء في صراع الشعراني مع أدياء التصوف أما الجانب الآخر فهو الصراع العنيف المر ، والمعركة القاسية التي خاض الشعراني غمارها في وجه العاصفة . ويالها من عاصفة .

فقد روت لنا كتب المناقب أن مصر حفلت في عصر الشعراني بطوائف من الدراويش يخطئهم العدد واكتظت الشوارع والطرق بمواكبهم والبيوت بولائمهم والزوايا والمساجد باجتماعاتهم ، وانتشر الشيوخ والآتباع في الريف والحضر وتغلغلوا في المدن والقرى ، وامتد سلطانهم إلى كافة طوائف الشعب وأضحى المتصوفة فوق القانون وفوق العرف وفوق الدين . واقتسموا بينهم مناطق مصر . فاستولى كل ولى على مساحة من الأرض يتصرف في أهلها ويستغل مواردها .

وكان على الشعب أن يكفلهم ويقوم بحاجتهم . وينظم لهم الموالد والولائم . وقد كان من أظهر مميزات التصوف في هذا العصر تحوله من ظاهرة وجدانية فردية إلى ظاهرة إجتماعية تتمثل في حياة أتباعه في رحاب الزوايا والتكايا حيث يعيشون مع زوجاتهم من فيض الأوقاف الضخمة التي تحبس عليهم ، والأرزاق التي تجرى من أجلمهم وكانت هذه العطايا من الكثرة بحيث أحالت زهدهم رخاء وتقشفهم ترفاً ، وكان المتصوف إذا خرج إلى الشارع أو سار في الأسواق تهافت عليه الناس وتكاثر حوله عديدهم وسدوا طريقه ، وانهلوا على يديه وقدميه تقييلاً وثمناً تقرباً إلى الله وزلفى . . . (١)



ويروى لنا الشعراني من أخلاق هذه الطائفة القوية السائدة عجباً أى عجب . لا نكاد نتصوره في عهدنا مع أنه كان اللون الغالب السائد في عصر الشعراني في دولة المجازيب والدرأويش .

كان الجهل الفاضح . والتحلل الشائن من الدين ، بل التمرد على الدين هو طابع الشيخ والمريد في هذا العصر .

يروى لنا الشعراني في معرض الحديث عن جهالة مشايخ الأحمديّة والبرهامية في عصره أنه سأل واحد منهم عن قواعد الإيمان فقال لا أدري . فسأله عن فرائض الوضوء . فقال لا أدري ؟ فسأله عن شروط الصلاة فقال لا أدري ؟

ويقول الشعراني معلقاً على هذا ، مع أنه شيخ كبير في زاوية يأخذ العهد ويتصدر الوعظ<sup>(١)</sup> ،

ويحدثنا الشعراني عن شيخ كبير من هؤلاء الشيوخ جاء لزيارة الشعراني فسأله الشعراني عن بعض مسائل في الدين . فصرح مفاخرأ بأنه لم يقرأ في العلم شيئاً . لأنه يحتقر العلم . ولا يعرف عن شروط الصلاة والوضوء كثيراً ولا قليلاً . لأنه فوق العبادات<sup>(٢)</sup> .

ويروى لنا المناوي في طبقاته الكبرى . أن زعامة التصوف قد آلت بعد الفتح العثماني إلى رجلين . يمثلان المعسكرين ، معسكر التصوف العليّ الرباني ، ومعسكر الادعياء الجهلة هما الشعراني ، ومحمد كريم الخلوّتي . ثم يقص علينا المناوي قصة اللقاء بين الرجلين الزعيمين :

(١) قواعد الصوفية ص ١٧٦

(٢) شبيه المفترين ص ٤



قال المناوي .

سأل الشعراني الخلوتي عن مسألة في الوضوء فأعلن هذا جهله بها رغم زعامته وزعم ما أصاب من شهرة بين الناس والامراء ، فقال له الشعراني إنك لا تصير صوفياً بغير علم . فقال الخلوتي علني . فشرع الشعراني في تعليمه ثم زاره مرة ثانية ليواصل تعليمه فأغلق هذا باب زاويته في وجهه فعاد مرة ثالثة عسى أن يتمكن من تعليمه فأساء الخلوتي استقباله ، وأغلق الباب في وجهه ، وقال لمريديه ساخراً — إن الشيخ الشعراني طلب أن يجعلني فقيها وأنا صوفي — قال الشعراني ففهمت من كلامه أنه اعتقد إنى دعوته إلى أمر فيه نقص . وقد أخذ الخلوتي ومريدوه يهزأون بالشعراني ويقولون : إنه يريد أن يجعلنا فقهاء مثله (١) .

ويصف لنا الاستاذ — أدوار لين — الذي زار مصر بعد انقضاء العصر العثماني بذيئف وعشرين عاماً في كتابه القيم عن مصر خلال هذا العهد، زعماء التصوف في هذا العصر وصفاً عجيباً يقول .

ومعظم الأولياء المعروفين في مصر مجانين أو مخابيل أو دجالون يسير بعضهم في الشوارع عارياً كامل العرى . فيلقى من الناس كل الاحترام والتوقير . حتى أن النساء لا يتجنبن الاتصال بهم . بل يأذن لهؤلاء الجبناء أحياناً بأن يكونوا معهم على قارعة الطريق أحراراً كاملى الحرية ولا يعتبر هذا في عرف الطبقة الدنيا من الشعب معرة ولا منقصة . بل هم يؤولون ما يشاهدون وما أعجب تأويلهم (٢) .

هذا موقف الشيوخ والزعماء . أما موقف المريدين والاتباع فيمكنى

(١) طبقات المناوى الكبرى ص ٥١٩

(٢) كتاب الاستاذين ص ٢٣٤



أن نقول: أن أحدهم احتاج إلى المال في تزويج ابنة له فضى إلى أحد التجار ملتسماً قرصاً في نظير رهينة من شعر أخذه من رأس شيخه . فقال له التاجر ساخراً متهمكاً . لو أعطيتني أردبا من شعر شيخك ما أخذته بدائق ، ولم يحزن المرید لحرمانه من المال بل كان حزنه الأكبر لسخرية الناس من شعر شيخه المقدس الذي لا يقدر بمال !!

رأى الشعراني ذلك البلاء المحيط بالأمة الإسلامية في مصر فسد قلبه وأرسل لسانه في ثورة ملتهبة . وحملة صادقة . تجتث أصول هذا البلاء وتحطم صرح هذا البهتان .

وأخذ الشعراني ينقض دعاوى تلك الطوائف متعقبا لخطاها مترصداً لحركاتها . مدللاً بالآيات الكريمة . والأحاديث الشريفة على مروقهم من الدين وبرائتهم من الإيمان .

وأقنى الشعراني فيما أقنى بأن الأحمدية والرافعية والبسطامية والأدهمية والمسلمية والدسوقية في عهده . خارجون على شريعة الله لأن أفعالهم يكذبها طريق شيوخهم السابقين . كما يكذبها الكتاب والسنة وهما : أصل الإسلام . وبرهانه المبين .

وتعقب الشعراني شيوخ عهده ، شيخاً فشيخاً مظهر اجهمهم بل كفرهم وسوء أديهم وأنهم أضل من الانعام . وأن طريق التصوف وهو الطهارة الكاملة . والزهد الشامل قد أصبح على أيديهم طريقاً إلى الشحاذة والتسول ، وهان حتى في أعين الطغام كما يقول .

ثم وضع الشعراني رسالته - ردع الفقراء عن دعوى الولاية الكبرى - فكانت السهم الأكبر ، هاجم به مدعى الولاية زور او بهتاناً ومحترفي التصوف



كذباً ونفاقاً . قائلاً : إنهم يقنعون بلبس الزي . فإن سألت شيخاً منهم عن قواعد الإيمان . قال : لا أدري . أو فرائض الوضوء قال : لا أدري ؟ ولا يعترف الإسلام بإسلام من يجهل قواعد دينه ، فضلاً عن أن يكون شيخاً أو مرشداً .

• وألف الشعراني كتبه الكبرى . تنميه المغتربين ، والممن الكبري ، والعهود المحمدية . والأنوار القدسية . وقواعد الصوفية . ليجلو الأخلاق الصوفية المثالية التي عرفها المتصوف الصادق ، وليظهر الفرق البعيد بين مواكب المتصوفين المرتزقة الزائفين . الذين لعنوا أينما ثقفوا . وباؤا بغضب من الله ، وبراءة من الرسول .



## موقف الشعراى

من المتصوفة العاطلين

وقد جر هذا اللون من التصوف الكاذب على الحياة الاجتماعية فى مصر نكبات نالت من اقتصادياتها وعزائم بنىها ، وأثرت فى مكاتها الدولية . فلقد كانت البطالة والتعطل من المبادئ العامة المحترمة المعترف بها فى ينيات متصوفة هذا العصر .

فكل من تزيابزى المتصوفة ترك العمل وانقطع إلى الزاوية أو التكية الخاصة بشيخه ، ورأى أن من حقه على الناس أن يطعموه ، وأن يقوموا بمعاشه بل وبمعاش أسرته أيضاً .

وقبلت الجماهير المصرية من هؤلاء الدراويش هذا الوضع ، بل اعتبروا تقديم الطعام والملبس وما إلى الطعام والملبس إليهم واجبا يحتمه الدين عليهم . وللكسب والعمل فى الاسلام مكانة لا يضارعا إلا الجهاد فى سبيل الله ، مر على النبي صلوات الله وسلامه عليه رجل ، فرأى أصحاب الرسول من جلده ونشاطه فى الكسب والارتزاق ، ما جعلهم يتحدثون فيه . قالوا : يارسول الله . لو كان هذا فى سبيل الله : فقال . صلوات الله عليه إن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله . وإن كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو فى سبيل الله . وإن كان خرج يسعى على أبوين كبيرين فهو فى سبيل الله .

وعاد بعض صحابة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه من سفر فأخذوا يتحدثون الرسول عن رجل كان معهم كثير العبادة ، كثير الصلاة ، كثير الصوم متفرغا أبدا لتقواه . فقال لهم النبي ، من كان يقوم به فى معيشته قالوا أخوه . قال أخوه أعبد منه .



ذلك هو منطق الإسلام ولكن ادعاء التصوف أبدلوه ونقضوه كما  
أبدلوا ونقضوا كل عرى الإسلام .

وأدرك الشعراى خطورة هذا الأمر على الفكرة الإسلامية وعلى  
الناحية الاقتصادية فى الأمة الإسلامية . فخصص جانباً كبيراً من حملته على  
أدعاء التصوف ، لتلك النقطة الخطيرة .

دعا الشعراى إلى الجمع بين العبادة والعمل باعتبارهما دعامة الحياة وساق  
الأدلة التاريخية على حرص كبار الصالحين من أهل التصوف على تجنب  
العيش على صدقات المحسنين .

وفضل الشعراى الصناعات على العبادة . لأن هؤلاء يساهمون فى نفع الناس  
بينما العبادة يقتصر نفعها على صاحبها . وكان يقول ما أجمل أن يجعل الخياط  
مثلاً أبرته سبخته . وأن يجعل النجار - منشاره سبخته ، ذلك هو التسبيح  
النافع المقبول .

بل لقد آثر الشعراى فى دعوته حياة البدن على حياة الروح لأن هذه قد  
تفرغت عن حياة الجسم وهى تتأثر بما يعتريه من وجوه العسر والبسر . حتى  
ليفضى الضنك إلى تشنت الفكر وبليلة خاطر - ولذلك كان أبو حنيفة  
يقول - لا تستشر من ليس فى يديه دقيق .

ويصرح الشعراى بأن ترك الكسب بالعمل المشروع والتماس الرزق  
عند المحسنين كدأب متصوفة عصره جهل بمقام التوكل الصحيح (١) .

ومن الجهالة كما يقول الشعراى ذم الدنيا إطلاقاً . وآفة الدنيا النساء  
والمال والجاه والولد . ولكن الكامل لا يهرب من هذه الآفات بل يستوعب  
حبها جميعاً . لأن دنيا العارف فى يده وليست فى قلبه .

(١) العهود المحمدية ص ٣٠٦ .



ومن هنا كان النكاح كما يقول الشعراني عبادة . بل النكاح عنده أعظم النوافل التي تدنى الانسان من ربه وتهيمه لتلقى العلم اللدني .

والزهد عند الكمل كما يقول الشعراني . لا يكون عن خلو اليد من متاع الدنيا وإنما يكون بخلو القلب مع امتلاء اليد . وكال المقام في زهد القلب لا يتحقق بغير الزهد فيما يملك الانسان التصرف فيه من غير مانع ، أما الزهد مع خلو اليد بما كان مصدره الاملاق ولهذا قيل ، شرط الداعي إلى الله ألا يكون كامل التجرد من دنياه

وهذا بالاضافة إلى أن مثل هذا الاملاق يحوج صاحبه إلى سؤال الناس بالحال أو بالمقال . وبهذا يهون في نفوسهم أمره . ويضعف عندهم تأثير تعاليمه . وعلى الضد من ذلك إن كان صاحب مال يفيض عن حياته فينفق منه على مر يديه وغيرهم من المحتاجين (١)

وتلك رحابة أفق من الشعراني في فهم الدنيا وتصور رسالة العابد الزاهد فيها . قلما نجد لها مثيلاً في تفكير رجال الدين .

ذلك موقف الشعراني من أدعياء التصوف ، وليس معنى هذا أن هؤلاء الأدعياء ، وهم قوة ضخمة ، فعالة في المجتمع المصري ، قد استكانوا لحملة الشعراني . وألقوا السلاح أمامها بغير حرب ولا قتال .

لقد هاجموا الشعراني بكل سلاح . واعتدوا عليه ، وتربصوا به الدوائر وملؤا الدنيا هتافاً وصياحاً بالتشهير به ، والحملة عليه ، بل أرسدوا له من يقتله غيلة وغدرا .

وقد أشار المناوي . والشبلي إلى التعاون الذي قام سرأ بين هؤلاء المتصوفة وبين الفقهاء ضد الشعراني في مؤامرة الأزهر الكبرى التي اتهم فيها الشعراني بالكفر كما سيأتي بيانه عند الحديث عن صراعه مع الفقهاء

(١) العهود المحمدية ص ٦٥ .



ولقد تحطمت حملات أدعياء التصوف على الشعراني . لأنها صادفت لدى الشعراني قوة إيمانية لا تغالب ، وقوة علمية لا تصاول ، وقوة نفسية لا تسمو إليها الأحداث . حتى ليهتف الشعراني واثقا بنفسه ، اللهم أفضحنا ولا تسترنا حتى يتميز الخبيث من الطيب ، وهي كلمة لا يجرؤ على قولها إلا رجل أى رجل .

رجل يعلم ماهو عمله . وما هى مكانته ، وأنه عمل لا تلحق به الشوائب وأنها مكانة لا تدنو منها الشبهات .

بينما أدت حملة الشعراني إلى القضاء على نفوذ هؤلاء الشيوخ الجهالة الأدعياء ، كما أثمرت حركة صوفية صالحة صادقة عالمة مبصرة .

حركة تصفها كتب التاريخ والمناقب بأنها عادت بالتصوف إلى عصوره الأولى ، إيمانا وزهدا . ومعرفة وعلما ونورا يرشد المسلمين إلى أنبل مافى الحياة من أخلاقيات ومثاليات .

وحسب الشعراني هذه الرسالة وحدها . فبمثالها يخلد العلماء المجاهدون مع أنها كانت جزءاً من حياته . ولم تكن كل رسالته :



## الشعراني

### وفقهاء الأزهر

#### الصراع بين الفقه والتصوف :

الفقه والتصوف ، صورتان من صور النشاط العلمي في التفكير الإسلامي ، ووجهان من أوجه التشريع والأخلاق في المجال الروحي للرسالة المحمدية ومع هذا فالخصومة بينهما تقليدية تاريخية ، منذ عرف الناس التصوف والفقه .

ولقد كان الفقيه في صدر الإسلام ، هو النموذج الكامل للرجل الكامل في الإسلام ، كان الفقيه هو العابد العالم الزاهد المجاهد ، المجاهر بكلمة الحق القائم على الجادة يرشد الناس بعلمه وعمله وبأخذهم بأيديهم إلى ما يرضى الله وإلى ما شرع الله ، وإلى ما فيه خير الأمة الإسلامية . والمجموعة البشرية كافة ، وبذلك كان الفقيه والصوفي شيئاً واحداً ، وكان التصوف والفقه اسمان لعلم مشترك .

كان الفقيه هكذا ، يوم كان الفقه هو روح الإسلام وجوهر الرسالة المحمدية . يوم كان الفقه تشريعاً وخلقاً . وعلماً وعملاً ، يوم كان الفقه لا يعرف الحيل الشرعية . ولا التفريعات الافتراضية الشاذة ، ولا الأعياب الألفاظ التي تقتنص الرخص وتستهدف الغلبة في ميادين الجدل والحوار . ثم أخذ الفقه الذي نعرفه اليوم يتكون شيئاً فشيئاً . بل أخذ يتعد شيئاً فشيئاً عن أخلاقياته ومثالياته وصفاته الأولى ، وأخذت ملامحه تتبدل وتغير وتتلون بألوان الثقافات التي تسربت إليه وتقمعت به ، وتسرت وراء تشريعاته .



فغدا الفقه علماء أكثر منه عملاً . وأصبح كتاباً للعقول أكثر منه مادة  
وتوجيهاً للقلوب ، بل أصبح وسيلة للحياة وسلاماً لمناصبها وزخرفها .

وبذلك خلع الفقيه أردية العباد ليرتدى أزياء رجال القانون ، وترك  
محارِب التقوى ليحتل مناصب الدنيا ، وأعرض عن الأخلاقيات والمثاليات  
ليصبح مع الساجدين وليثيب مع الواثبين إلى لمع الجاه ومتاع الحياة ، وما  
تزخر به الدنيا من مفاتن ومباهج .

ومن هنا انفصل الفقه عن التصوف ، أو انفصل المتصوفة عن الفقهاء  
واختلفا طريقاً ونهجاً ، وغاية وهدفاً .

يقول ابن خلدون في مقدمته متحدثاً عن نشأة التصوف وعن سمات  
أصحابه :

وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تنزل عند سلف الأمة وكبارها من  
الصحابة والتابعين وهن بعدهم . طريقة الحق والهداية ، وأصلها العكوف على  
العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ،  
والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، وكان ذلك عاماً في  
الصحابة والسلف ، ولما نشأ الاقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده  
وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ، اختص المقبولون على الله باسم الصوفية .

اختص المتصوفة بشهادة الكاتب الكبير ابن خلدون . بالأخلاق  
الإسلامية التي كان عليها الصحابة رضوان الله عليهم ، وبالاقبال على الله .  
والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يتنافس فيه الناس ، بل  
فيما يتقاتل عليه القطيع العام من البشرية .

واختص المتصوفة أيضاً بأنهم ربطوا بين العلم والعمل ، فالفقيه عندهم  
هو العالم العابد ، هو الذي ينبع إيمانه من قلبه لا من عقله ، هو الذي



يطابق عمله علمه ، لأن العقيدة هي العمل . ولأن التعبد شرط العلم الديني .

كما امتاز المتصوفة بابتعادهم عن الجدليات اللفظية ، والتفريعات الافتراضية التي تباعد بين المسلم وجوهر دينه ، والتي تشغل العقل الاسلامي عن واجبه الأول وهدفه الأسمى ، واعتبروها سفطسة دخيلة على الاسلام بعيدة عن روحه الفطرية السليمة ، أولى منها ثم أولى الاشتغال بما يظهر القلب ويزكي الجوارح ويلهم الروح طاعة الله والعمل على رضاه .

وعلى ضوء هذه العقيدة آمن المتصوفة بأن رجال الفقه المتأخرين أو أكثرهم انحرفوا عن مناهجه الاسلامية ، ولم يقوموا بجوانبه التعبدية والأخلاقية ، فعدوا رجال قانون وتشريع . لا رجال عقيدة ودين .

عن عمران القصير قال : سألت الحسن البصري عن شيء . فقلت : إن الفقهاء يقولون كذا وكذا ، فقال : وهل رأيت فقيها بعينك إنما الفقيه الزاهد في الدنيا البصير بدينه المداوم على عبادة ربه عز وجل .

وكان أبو طالب المسكي يقول :

علماء الدنيا — أي الفقهاء — قعدوا على طريق الآخرة فلا هم نفذوا ولا تركوا العباد يسلكون إلى الله عز وجل ؛ وكان يشبههم بالقبور ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى (١) .

وكان الغزالي وهو الفقيه الأصولي الكبير يقول :

صارت كلمة الفقه إلى تفريقات الطلاق ، وصور الايمان والعشق المفروضة ووجوه السلم وغير ذلك مما لا يحصل به إنذار ولا تخويف مما كان التجرد



له والاكتثار منه وحفظ المقالات المتعلقة به يقسى القلب وينزع الخشية منه ، صارت إلى هذا بعد أن كانت عنواناً على معرفة دقائق النفس ومفاسدات الأعمال ، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة مع امتلاء القلب بخوف الله ورجائه .

وكان أبو العباس يقول : شاركنا الفقهاء فيما هم فيه من علم ولم يشاركونا فيما نحن فيه من عبادة وأخلاق .

ورجال الفقه من ناحيتهم نظروا فروا أن التصوف كلمة عامة غير محددة بالحدود التي تتحد بها العلوم ، وأن المحراب الصوفي قد امتلأ بطوائف شتى من بينها الدخيل والأصيل .

كما شاهدوا بأعين فزعة جزعة المتصوفة وهم يكونون لأنفسهم علوماً ومعارف من إلهامات الروح ومعارج القلوب ، وأنهم قد ابتدعوا فنوناً في المحبة الإلهية وما تحتوى عليه هذه المحبة من وجد وشوق وجذب وفناء وسر وأمرار ، ومبتكرين أيضاً ألواناً أخلاقية في الذكر والخلوة والمناجاة ومثاليات تطوف حول عبادات أو جبوها على أنفسهم فوق الفرائض والنوافل مقيمين من ذلك كله دستوراً ضخماً يدور حول أمراض القلب وأدويتها ، وخفايا النفوس ووساوسها ، ومجالات الروح وإلهاماتها .

وكل هذا بدأ في نظر الفقهاء أو في نظر أكثرهم ابتداعاً في الدين ، وانحرافاً عن الحياة المثلى ، وتمرداً على ما اصططلحت عليه العقول في بناء الحياة الدنيا .

وأخطر من هذا المظهر الدنيوي بينهما ، فقد آمن رجال الفقه بأنهم وحدهم سادة الجماهير . وأنهم وحدهم سدنة الدين وحراس نبعه المقدس ، وليس لغيرهم أن يرتدى ثوب الدين وقداسة هذا الثوب . وليس لغيرهم أن يقول في الدين برأى أو يلقي في مشكلاته بدليل أو حجة .



ومع إيمان الفقهاء بهذا فقد انتزع المتصوفة الجماهير من قبضة الفقهاء  
وتزعموها دونهم ، واحتفظوا بهذه الزعامة على التاريخ رغم ما بذل في  
سبيل هدمها وزلزلتها .

وكان هذا وحده كفيلاً بأن يركى نار الخصومة . وأن يلهب الحقد في  
قلوب الفقهاء فيعلنونها حرباً قاسية على التصوف والمتصوفة . حرباً استغلت  
فيها كافة الأسلحة من التكفير كما حدث في محنة التصوف الكبرى التي تعرف  
في التاريخ ، بمحنة غلام الخليل ، حيث قدم للدوت . أبو علي الدقاق .  
وأبو الحسين النورى وغيرهما من أئمة التصوف باسم الكفر والزندقة .

إلى الدس الرخيص لدى الأمراء والملوك بدعوى حماية العرش وتدير  
المؤامرات كما حدث في مأساة الحلاج ونكبة السهروردى .

إلى القتل الغيلة في جنح الظلام كما حدث للمناوى تلميذ الشعرانى الأكبر  
وصاحب الكواكب الدرية في طبقات الصوفية .

ورغم تلك الخصومة الحادة التي حملها جمهرة الفقهاء للتصوف والمتصوفة  
كان أئمة الفقه جميعاً ، من المتصوفة خالقاً وعملاً وحباً بلا استثناء مما يحملنا  
على الاعتقاد بأن أساس الخصومة دنيوياً لا دينياً .

كان أبو حنيفة فقيهاً صوفياً ، وكان الشافعى يرسل دقائم المسائل الفقهية  
إلى أبى حمزة الصوفى ويقول علمنا يا صوفى ، وكان يقول : استفدت من  
الصوفية طول صحبتى لهم سنين . قولهم : الوقت سيف إن لم تفتحة قطعك ،  
وقولهم : إن لم تشغل نفسك بالخير شغلتك بالشر .

وكان أحمد بن حنبل يتنسك تنسكاً صوفياً ويأمر ابنه بملازمة الصوفية  
ليصفوا له دينه ، وقد سئل من الناس : فقال العلماء . ومن الملوك فقال :  
الصوفية . ومن السفلة فقال : الذين يعيشون بدينهم .



وكذلك كان مالك والليث بن سعد وسفيان الثوري . حتى إن المتصوفة قد أرخوا لهؤلاء جميعاً في طبقاتهم باعتبارهم من أئمة التصوف ورجاله الأول .

وكذلك كان كبار المتصوفة فقهاء علماء أرخ لهم الفقهاء في طبقاتهم على اعتبارهم من السادة الفقهاء رجال التشريع ، كالجنيد والحسن البصرى ومحي الدين بن عربى والغزالي والشعراني .

فالحقيقة التي تعلو على خصومات التاريخ أن التصوف والفقهاء توأمان متلاصقان لا يعيش أحدهما بغير الآخر . ووجهان لفكرة واحدة هي الإسلام الذي لا تكمل معانيه تشريعاً وخلقاً وروحاً وجسداً إلا باتحادهما .

حتى ليقول أحمد بن حنبل : من تصوف ولم يتفقه فقد تفسق ، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تزندق ومن جمع بينهما فقد تحقق .

ويقول الأستاذ آدم منز في كتابه — الحضارة الإسلامية في القرآن الرابع الهجرى — :

« رغم خصومة المتصوفة والفقهاء نجد بين العلماء كالشافعية مثلاً كثيراً من الصوفية ، وهذه حقيقة واقعة ، ولقد كانت علوم الصوفية الدينية أهم العلوم وأكثرها نجاحاً فقد كانت هي الحركة العلمية التي ضمت أعظم القوى الدينية في ذلك العهد . »

ثم يقول :

والحركة الصوفية في القرنين الثالث والرابع أوجدت في الإسلام ثلاثة مبادئ أثرت فيه تأثيراً كبيراً وهي : ثقة وطيدة كاملة بالله تعالى ، والاعتقاد بالأولياء ، وإجلال النبي محمد صلى الله عليه وسلم . ولا تزال هذه المبادئ



الثلاثة أهم العوامل وأقواها تأثيراً في الحياة الإسلامية ، ولعل هذا التفوق الذي ظفرت به المبادئ الصوفية هو سر خصومة العلماء للمتصوفة .  
ويقول الشعزاني في المنن :

« واعلم يا أخى أن غالب الإنكار الذي يقع بين الفقهاء والمتصوفة إنما هو من القاصر من كل منهما ، وإلا فالكامل من الفقهاء يسلم للعارفين والعارفون يسلمون للفقهاء ، لأن الشريعة جاءت على مرتبتين . تخفيف وتشديد ولكل من المرتبتين رجال في حال مباشرتهم للأعمال ، فمن قوى منهم خوطب بالتشديد ، ومن ضعف خوطب بالتخفيف والأخذ بالرخص فكما أن موسى عليه السلام كان على هدى من الله فكذلك الخضر عليه السلام ، ولهذا سلم موسى للخضر آخر الأمر لما علم أن للشريعة مرتبتين : مرتبة خاصة بعامّة الناس ، ومرتبة خاصة بالعارفين ولا اختلاف في الجوهر بينهما . »



## فقهاء عصر الشعراني

سر الخصومة إذن بين الفقه والتصوف كما يقول المستشرق آدم متزهو  
السنافس على النجاح بين الجماهير . أو كما يقول الشعراني « إن الجهل هو الذي  
يحرك الخصومة » .

والجهل والصراع على الدنيا كانا طابع الفقهاء أو أكثرهم في عصر  
الشعراني ، ولهذا واجه الشعراني أكبر المعارك التي عرفها التاريخ بين  
الفقهاء والمتصوفة .

جاء الشعراني والأزهر في عصر من عصور جموده وانحداره ، فقد  
خبأت تلك الشعلة المتقدة التي ظلت تضيء في الأزهر قروناً متعاقبة .  
وانطفأت المصابيح التي كان الأزهر يفخر بها ويباهي والتي كانت السمع  
والبصر للعالم الإسلامي .

جاء الشعراني والأزهر يعيش داخل كتب الشروح والحواشي التي  
ألفت في عصور الجمود الفكري والبلادة الذهنية . ويقتات على موائد هذا  
الماضي من غير أن يكون له تفكير أو رأى أو ما يشبه التفكير والرأى .

كان العصر الذي يظل الأزهر هو عصر الشروح والحواشي التي  
لا تنتهي إلى غاية ولا تهدف إلى فكرة محددة . فكان العلماء يتناولون المتن  
الذي وضع من قبل فيضيفون له الشروح والتعليقات . ثم يأتي بعدهم من  
يتولى شروحهم بالشرح والتعليق وهكذا حتى يخرج الكتاب عن موضوعه  
بل كثيراً ما تحولت الشروح والحواشي إلى موضوعات لا تمت إلى الأصل  
بسبب بل لا تمت إلى العلم بنسب .



ولهذا ساد الأزهر ركود علمي لم يعرفه من قبل وتحول الأزهر إلى مدرسة للفلسفة والجدل حول تفرعات وافتراضات فقهية أبعد ما تكون عن جوهر الفقه وروحه .

وبذلك قضى الفقهاء على الروح الإسلامي الذي قام في الأزهر لإعلاء كلمته واكتفوا بالشرح والاعراب ودراسة أوجه القراءات القرآنية وحيل الفقهاء الشرعية .

وجاء الشعرائي وهو ليس منهم يقرع أسماعهم بالقارعة الكبرى ويهاجمهم في جمودهم المقدس ويزلزل ما أذن الأزهر فوق رؤوسهم ويؤلب الجماهير عليهم ويدفعها إلى نقدهم والخروج من سلطانهم .

ناعياً عليهم ابتعادهم عن الأخلاق الدينية فضلاً عن العلم ، وتخليهم عن فضائل النفس وطهارة القلب ، مذكراً إياهم بالآية القرآنية ( مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الجمار يحمل أسفارا ) .

ثم يقارن الشعرائي بين طريقتهم في العلم وبين طريقة التصوف وبين موقفهم من القرآن الكريم وموقف المتصوفة فيقول :

( فالمتصوفة علموا أن المراد من العلم وتلاوة القرآن الاتعاظ والزجر والتخويف وأنهم يسألون عن كل مسألة علموها ولم يعملوا بها

ولذلك كان أهل الله غائبين عما يقصده غالب القراء بقراءتهم لما هم فيه من الخشوع عند التلاوة فلم يبق متسع لسواه . فلم يشغلوا أنفسهم بالقراءات والاختلاف فيها لأن فيها يضيع العمر ، والاتعاظ يحصل برواية أبي عمرو مثلاً . ولم يقدر أحد من السلف أن يقرأ بجميع هذه الروايات .

فرقة تمد وفرقة تفخم وفرقة ترقق وغير ذلك من وجوه الأداء الذي يرع فيه رجال الأزهر .



بل كانوا علماء الله وبالله عاملين صائمين قائمين زاهدين خائفين فلم  
يكونوا مقتصرين على حفظ المسائل فقط بل كانوا عاملين بها .

لم يصرفوا حياتهم في علم القراءات ووجوهها وإنما اتجهوا بقلوبهم  
إلى ما في القرآن من مواضع وتهديدات وتخويات وآيات بينات .

ويضرب الشعراني لذلك مثلاً فيقول :

« كالذي أرسل إليه السلطان كتاباً يأمره وينهاه بأمر كثيرة فأخذه  
وقبله وصار يدرس ألفاظه ليلاً ونهاراً بالمد والأمانة والتفخيم والترقيق ثم  
أرسل إليه السلطان ينظر ما فعل في الأوامر والنواهي فوجده لم يفعل  
شيئاً منها وهو على هذه الحالة ، فهل هذا مراد السلطان ، وهل هذا فعل  
من له قلب أو عقل (١) ؟

ثم يقول الشعراني متهمكاً بهم لأنهم يدرسون ولا يعملون :

« وهل يقول للملكين في القبر وللزبانية على جهنم : دعوه لأنه كان  
يحفظ أبواب المعاملات أو يحفظ أبواب الفقه والنحو والاصول على ظهر  
قلبه أو يقرأ بالمد والأمانة والتفخيم والترقيق . كلا والله لا يكرم بشيء من  
ذلك إنما يكرم بالتقوى والعمل الصالح ومعرفة الله عز وجل وكف الأذى  
عن جميع الآنام ومن شك في ذلك فسيراه يقيناً (٢) .

ولقد خصص الشعراني الفصول الطوال في كتبه للحملة على الفقهاء  
الجامدين بل خصص كتباً كاملة لهذا الغرض مركزاً حملته الكبرى على  
الجانب الأخلاقي الإيماني الذي فقد في الأزهري .

يقول المستشرق — فولرز في دائرة معارف الدين والأخلاق ، إن

(١) آداب العبودية ص ٩٣ .

(٢) آداب العبودية ص ٩٧ .



الشعراني في كتابه البحر المورود كان جريئاً في مهاجمة الفقهاء والتنديد بطمعهم وزهوهم والتشهير بجشعهم وتهافتهم على الوظائف ، ،  
ويقول — نيكلسون — إن الشعراني كان لسعة علمه بالدين يحارب الفقهاء بسلاحهم ولذلك نجح في حملته التي تركت أكبر الآثار ، .

وحملة الشعراني على الفقهاء من رجال الأزهر الذين لم يتخلقوا بالآداب الإسلامية ، ولم يقوموا بواجبات العلم الديني . ولم يتفقهوا حقاً روح الفقه الإسلامي تشغل جانباً كبيراً في جهاده في سبيل بناء الفكر الإسلامي من جديد .

وهي حملة نشأت عنها أحداث كبرى أثرت إلى أبعد مدى في حاضر الأزهر في أيامه وما تطور إليه بعد ذلك .

فقد انقسم الأزهر إلى فريقين : الفريق الأول يناصر الشعراني ويؤيده ويدعو بدعوته ويطالب الأزهر بتحقيق رسالته . أما الفريق الثاني فقد أعلنها خصومة مرة حادة أحاطت بالشعراني ولاحقته حياً وميتاً .

بل لقد كانت حملته سبباً في تلك الشائعات الكاذبة التي أحاطت بالشعراني ولم تفارقه إلى يومنا .

بل أخطر من هذا كانت السبب المباشر لمؤامرة طالما أصابت رجال التصوف ، وهي مؤامرة تشويه كتب الشعراني بالبدس والتزييف فيها .

ولا عجب في هذا فقد زيفوا كتباً على الشعراني في حياته . وزيفوا مقدمة لبعض كتبه بين سماعه وبصره بما سنعرض له بالتبيان والتفصيل .



# ثورة الأزهري

## على الشعراني

نظر الفقهاء إلى الشعراني : نظرهم إلى زنديق مارق ، فقد تجرأ على  
قداستهم واستطال على مكاتهم . وتهكم بعلومهم ومعارفهم .

وأخطر من هذا أنه انتزع زعامة الجماهير من أيديهم . وظفر وحده  
دونهم بالكلمة النافذة والمكانة العالية لدى الأمراء والملوك في مصر  
واستانبول معاً .

واذن فالحرب بينهم وبينه من جانبهم ، معركة على الحياة ، بل معركة على  
البقاء ، ومعارك البقاء لا تعرف اللين ولا الهوادة بل هي الحرب الشاملة  
بكل ما فيها من قسوة ، وبكل ما تملك من أسلحة كريمة وغير كريمة .

والفقهاء دائماً في حروبهم مع المتصوفة ومع غير المتصوفة ممن يدخلون  
في دائرة المنافسة : يستعملون سلاحاً رهيباً أمتحن على التاريخ فأثبت كفاءته  
وأثبت أنه السلاح الحاسم القتال .

وهذا السلاح ، هو سلاح التكفير والمروق من الدين . والدين لديهم  
مرن مرونة عجيبة ، مرونة تسمح بأن يقدموا الدليل على كفر من أبغضوا ،  
ويقدمون نفس الدليل على إيمان من أحبوا ، والسر كل السر في التأويل  
اللوي المطاط ؛ والتلاعب البارع بالألفاظ والمقدمات .

وأعجزهم مع الشعراني حتى هذا الدليل المطواع . فالشعراني كما قدمنا  
كان صوفياً على الجادة الوسطى والنهج المحدد كالصراط ، لا يسبح السبح  
الفلسفي ، ولا يرسل الكلم المجنح . ولا يعرف اللفظ الذي يحمل الوجهين



ولا يطلق قلمه في مقامات الفناء واستغرافات المحبة وسيجات الوجد ،  
وإذن فيلجأوا إلى الدس في كتبه ، وليعمدوا إلى الافتراء ونسبة ما لم  
يقبل إليه .

ومهدوا لمعركتهم بالتحالف مع أديعاء التصوف من جهلة الأميين  
المارقين لأنهم وإن كانوا خطراً على الدين والأخلاق ، فلا خطر منهم على  
العلماء والفقهاء .

وثارت الفتنة الكبرى . وأعلنت الحرب في الأزهر على الشعراني  
فزيفوا مقدمة كتابه « كشف الغمة » وضمنوها كقرينات سخيفة لا تصدر  
من عاقل أو مؤمن .

ودسوا في كتابة « البحر المورود » - وهو الكتاب الذي هاجمهم فيه -  
تعاليم تخالف ظاهر الكتاب والسنة ، بل دسوا عليه وجوهاً من العبث  
لا تتفق مع وقاره وصلاحه ، وضروباً من الأعمال الماجنة الساذجة لا تليق  
بعلمه ومكانته وأرسلوا هذه الكتب المزيفة إلى الحجاز وتركيا لمكانته  
الشعراني فيهما ، بعد أن أذاعوها في مصر والأزهر .

ثم لجأوا إلى السلاح الآخر الذي يتقنه الفقهاء والذي برعوا فيه مع  
التاريخ وهو تحريض الولاة والحكام على المتصوفة ، فخرضوا سلطان مصر  
وخليفة تركيا على الشعراني بدعوى خطورته على الأمن والنظام والدولة  
والسلطان والخليفة .

يقول الشعراني : (١)

« وما من الله به على صبري على الحسدة والأعداء لما دسوا على في كتي

(١) المنى الكبرى جزء ٢ ص ١٩٠ .



كلاماً يخالف ظاهر الشريعة ، وصاروا يستفتون على زوراً وبهتاناً ومكاتبهم  
في لباب السلطان ونحو ذلك .

واعلم يا أخى أن أول ابتلاء وقع لى في مصر من نحو هذا النوع . أتى  
لما حججت سنة سبع وأربعين وتسعمائة زور على جماعة مسئلة فيها خرق  
لإجماع الأئمة الأربعة وهى أنى أفنيت بعض الناس بتقديم الصلاة عن وقتها  
إذا كان وراء العبد حاجة . قالوا وشاع ذلك في الحج وأرسل بعض الأعداء  
مكاتبات بذلك إلى مصر ، فلما وصلت إلى مصر حصل في مصر رج عظيم  
حتى وصل ذلك إلى إقليم الغربية والشرقية والصعيد وأكبر الدولة بمصر ،  
فحصل لأصحابى غاية الضرر ، فارجعت إلى مصر إلا وأجد غالب الناس  
ينظر إلى شذراً فقلت ما بال الناس فأخبرونى بالمكاتبات التى جاءتهم من مكة .

ثم يقول الشعرانى :

« ثم أنى لما صنف كتاب البحر المورود فى الموائيق والعهود وتسارع  
الناس إلى كتابته غار من ذلك الحسدة فاحتلوا على بعض أصحابى واستعاروا  
منه نسخة وكتبوا لهم منها بعض كراريس ودسوا فيها عقائد زائفة . ومسائل  
خارقة لإجماع المسلمين ، وحكايات سخريات عن حىجى وإن الراوندى  
وسبكوا ذلك فى غضون الكتاب فى مواضع كثيرة . ثم أخذوا تلك  
الكراريس وأرسلوها سوق الكتبيين فى يوم السوق وهو مجمع طلبية العلم .  
فنظروا فى تلك الكراريس ورؤوا اسمى عليها فاشترأها من لا يخشى الله ثم  
داروا بها على علماء الجامع الأزهر فوقع بذلك فتنة كبيرة . ومكث الناس  
يلوثون بنى فى المساجد والأسواق وبيوت الأمراء نحو سنة . »

ثم يقول الشعرانى :

« إن عليا باشا الوزير نقم على بعض المباشرين وعزم على قتله ونفيه



فطلع بعض العلماء يشفع فيه فلم يقبل فأتوا إلى فطلعت للباشا فأكرمني  
وقبل شفاعتي . وقال لي لا تكلف خاطر كقط إلى طلوع القلعة وأرسل لنا  
ورقة فقط فيبلغ ذلك الحسدة فاجتمعوا وزيفوا على مسائل في العلم كاذبة ،  
وأضافوا إليها أموراً منفرة لعلى باشا ثم رفعوها إليه . فلما قرأها قال : أما  
المسائل المتعلقة بالشريعة فذلك راجع إلى العلماء ، وأما غير ذلك فلا أقبله  
فيه أبداً ، وإنما رجعت في أمره إلى قلبي . فأرسلوا إليه قصة ثانية وثالثة  
فمزقها وشاع في مصر أن الباشا يجب فلانا . فقال الحسدة قد صار أهل مصر  
مع الشعراني وكذلك الوزير فاكتبوا فيه قصة ترسل لباب السلطان .

فكتبوا فيه قصة خلاصتها أن شخصاً في مصر قد ادعى الاجتهاد المطلق  
وكرث أتباعه ويخاف على المملكة منه والمستول من صدقات مولانا  
السلطان فقيه من مصر .

ورشوا بعض الوزراء ليحملها إلى باب السلطان فحملها إليه وقبض الله  
على الشيخ عبداللطيف أمين الدين فنفي عنى كل هذا وقال : إن القصة كلها زور  
على الرجل الصالح .

### محاولة قتل الشعراني

فشلت مؤامرة الفقهاء لدى الوالي ولدى الخليفة ، كما فشلت حملة الافك  
والدس والتشهير داخل الأزهر وخارجه .

فقد انتصر للشعراني في الأزهر طائفة من أئمة العلم وأولى المسكنة في  
الدين في طليعتهم شيخ الاسلام زكريا الأنصاري ، وشيوخ المذاهب الأربعة  
في الأزهر الفتوح الحنبلي ، وناصر الدين اللقاني ، وشهاب الدين أحمد ،  
وشهاب الدين الرملي .

كما استطاع الشعراني أن يظهر للجهاير براءته مما دس عليه ونسب إليه



بتقديمه لأصول كتبه ؛ فازدادت مكانته لديهم وازدادوا له حباً .

فإذا بقى لخصومه بعد هذا . لقد لجأوا إلى السلاح الثالث والآخر . سلاح الغيلة والقتل . فرصدوا له في الطرقات من يفتك به . ودسوا له السم كما دسوا بعد ذلك لتلميذه الأكبر المناوى ، وذهب المناوى شهيد تديرهم ونجى الله الشعراني مما دبوا وقدروا .

وأخيراً تحطمت أسلحة خصومه جميعها ولم يتحطم الحقد في قلوبهم فأتوا أمراً إداً عجيباً يدل على المرارة القاتلة التي يحملونها للشعراني .  
لقد أشاعوا نبأ موته كذباً ليذهبوا غيظ قلوبهم .

يقول الشعراني : وبما وقع لي أن بعض الأقران في الأزهر غلب عليه الحسد حتى أشاع عني في الجامع الأزهر وغيره أني مت . وقال : أخبرني جماعة ثقات أن فلاناً مات فجأة وأرسل بذلك كتباً إلى دمياط والمحلة والاسكندرية ،<sup>(١)</sup> .

وذهب خصوم الشعراني . وبقي الشعراني حياً خالداً في كتبه وآثاره التي ترشد الناس إلى دينهم وتعلمهم مكارم الأخلاق وترفع بهم إلى محارب التقوى والإيمان .



## الشعراني وعلماء الكلام والتوحيد

«إن الحقائق لم تدع في قلوب  
العارفين للتأويل أبدا»  
(الجنيد)

جاء في كتاب أعلام الموقعين .

« وقد تنازع الصحابة في كثير من مسائل الأحكام وهم سادات المسلمين  
وأكمل الأمة إيماننا ولكن بحمد الله لم يتنازعا في مسألة واحدة من مسائل  
الأسماء والصفات والأفعال بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة ،  
كلمة واحدة من أولهم إلى آخرهم ، لم يسوموها تأويلا ، ولم يحرفوها عن  
مواضعها تبديلا ولم يبدو لشيء فيها ابطلا . ولا ضربوا لها أمثالا ، ولم  
يدفعوا في صدورهم وأعجازها ، تلقوها بالقبول والتسليم وقابلوها بالإيمان  
والتعظيم ،

ذلك هو نهج صحابة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، الذين تأدبوا  
بأدب رسول الله الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه .

لا يعرفون جدلا ولا حوارا في أسماء الله جل جلاله وصفاته . ولا  
يقرون بحثا فلسفيا في القضاء والقدر ، ولا يرضون عن نزاع يقوم حول  
نسبة الأفعال إلى الله أو نسبتها إلى عباده .

فإن كل هذه المسائل من علم الله الذي لا تدركه العقول ، وعلم الله الذي  
اختص به لا مجال للعقل البشري فيه ، ولا ينبغي التطلع إلى أسرارهِ وخوافيه  
فاذا حاول العقل البشري أن يتخطى حدوده ضل وفسق عن أمر ربه  
وألقي بنفسه إلى تيه لا هدى فيه ولا نور ولا دليل مبين .

وهذا هو ما حدث لكل الفرق الإسلامية التي حاولت أن تجادل في علم  
الله ، وأن تتناول إلى القدس المغيب ، لتدرك أسرار القضاء والقدر ،



أو لتهدى إلى حقائق الذات والصفات ، وأفعال العباد ومقام العبد منها وأثر الله جل جلاله فيها .

ضلت هذه الفرق ولم تهتد لأنها حاولت أن تنال الاعلى بالأدنى ، وأن تلمس السر الإلهي بمداركها البشرية .

وضل مع هذه الفرق المنطقيون ورجال الكلام وعلماء التوحيد ، لأنهم افترضوا للإيمان وابتكروا للمعرفة صوراً وألواناً لا يقوم الإيمان إلا بها ، ولا تكمل المعرفة إلا بحدودها .

وهي صور وألوان ابتدعوها وافترضوها لا يقرها القرآن ولا تعرفها السنة . بل ولم يعرفها صحابة رسول الله ولم تجعل بعقولهم وإنما تسربت إلى الفكر الإسلامي من الفلسفة اليونانية الوثنية المملحة .

يقول الصلاح الصفدى فى شرح لامية العجم : إن المأمون لما هادن صاحب جزيرة قبرص كتب يطلب منه خزانة كتب اليونان وكانت عندهم مجموعة فى بيت لا يظهر عليه أحد ، فجمع الملك خواصه من ذوى الرأى واستشارهم فى ذلك فكلهم أشار بعدم تجهيزها إليه إلا بطريق واحد فانه قال جهزها إليهم فمادخلت هذه العلوم على دولة شرعية إلا أفسدها وأوقعت بين علمائها ،

ويقول ابن الجوزى فى تلييس ابليس (١)

« وكيف لا يندم الكلام وقد أفضى بالمعتزلة إلى قولهم — إن الله عز وجل يعلم جمل الأشياء ولا يعلم تفاصيلها — وقال جهم . علم الله وقدرته وحياته محدثة ، وقال أبو على الجبائى ، وأبو هاشم ومن تابعهما من البصر بين المعدوم شىء وذات ونفس وجوهر وبياض وصفرة وحمرة ، وإن البارى سبحانه وتعالى لا يقدر على جعل الذات ذاتا ، ولا العرض



عرضا ، ولا الجوهر جوهرأ ، وإنما هو قادر على إخراج الذات من  
العدم إلى الوجود . .

وقال النظام ، إن الله عز وجل لا يقدر على شيء من الشر وإن ابليس  
يقدر على الخير والشر . .

ويقول أبو الفرج معقبا على تلك السفسطة الجدلية الفارغة ، « أعود بالله  
من نظر وعلوم أو جبت هذه المذاهب القبيحة ، .

وكان أبو الوفاء بن عقيل يقول : أنا أقطع أن الصحابة ماتوا وما عرفوا  
الجوهر والعرض ، فإن رضيت أن تكون مثلهم فكن . وإن رأيت أن  
طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبي بكر وعمر ، فبئس ما رأيت . .

لقد دفع رجال الكلام وعلماء المنطق والمتأثرون بهم من المعتزلة وغيرهم  
بالأمة الإسلامية إلى شكوك ومجادلات وضروب من البحث العقيم باعدت  
بينهم وبين الايمان ، وبعادت بينهم وبين روح الاسلام وبعادت بينهم وبين  
العبادة لله ، والعمل الصالح للحياة .

ووقف المتصوفة وحدهم على الجادة الكبرى ، والطريقة المثلى ، يؤمنون  
بالقدر كما جاء به القرآن وكما علمهم الرسول ، ويؤمنون بأسماء الله جل جلاله  
وصفاته المقدسة كما أسماها وكما وصفها القرآن وكما نطقت بها السنة ، من غير  
تأويل ولا تعليل ولا تعطيل ولا تمثيل ، لأن الايمان يجب أن يكون بما  
أنزل الله من الألفاظ والمعاني ، لا بما أوله العقل ، وابتدعه التصور ،  
وتخيله المنطق .

ويقول محيي الدين ، ومن العجب ان الله تعالى يخبر بشيء عن نفسه في  
كتابه المحكم فيأتي الانسان بعقله القاصر ، فيقول إن عقلي يرد ذلك وفكري



لا يَحتمل ذلك وإنما يجب التأويل ، وليس عاقبة هذا التأويل إلا أن يصوغوا من خيالهم وتفكيرهم خالفاً غير ما في كتاب الله ، (١) .

ويقول الامام الغزالي « إن من أشد الناس غلوا واسرافا طائفة من المتكلمين كفروا عوام المسلمين وزعموا أن من لا يعرف الكلام معرفتهم . ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتهم التي حرروها فهو كافر .

لقد ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده أولاً وجعلوا الجنة وقفا على شردمة يسيرة من المتكلمين ، (٢) .

ويقول الحلاج « من لا يعرف شعرة من بدنه كيف تنبت سوداء أم بيضاء كيف يعرف مكون الأشياء . ؟ ومن لا يعرف المجمل والمفصل ولا يعرف الآخر والأول ، والتصارييف والعلل ، والحقائق والحيل ، لا تصح له معرفة من لم يزل ، .

ويقول الشعراني « ومما من الله به على حفظي عن الخوض في معاني آيات الصفات وأخبارها من منذ وعيت على نفسي ، وقل من سلم من مثل ذلك ، وهذا من أكبر الذنوب التي يقع فيها العلماء ولا يشعرون .

ترى أحدهم يخوض في الكلام على الذات وينسى ما كلف به من الزهد والورع وجهاد النهار وقيام الليل والخوف من الله تعالى ونحو ذلك . حتى كأن الاسلام لديهم محض كلام من غير عمل .

وكان يقول « جميع المعبرين والمؤولين والمتكلمين في علم التوحيد لم يبلغوا عشر معشار معرفة ادراك كنه حرف واحد من حروف الهجاء ، .

ويقول الشعراني

« ومما من الله به على إيماني بأن أفعال العباد خلق الله تعالى في حال

(١) الفتوحات الجزء الأول .

(٢) كتاب التفرقة بين الإيمان والزندقة ص ٧٩ .



إضافتها إلى العباد معا في آز واحد ، وهو من أصعب الأمور لأنه إيمان بطريقتين متناقضتين ، فاشهد بعين بصيرتي في مثل قوله تعالى — وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى — ان الرمي لله تعالى في حال كونه للعبد لا على التعاقب ، ويحتاج صاحب هذا المشهد إلى عينين ينظر بهما إلى النسبتين حتى يخرج عن الحيرة فان صاحب العين الواحدة لا يقدر على الخروج من الحيرة في هذه المسئلة أبدا .

وقد حجب إلى أن أوضح لك هذه المسئلة بما لا تجده في كتاب من كتب المتكلمين فأقول وبالله التوفيق .

اعلم يا أخى أن العقل يقصر عن فهم مسألة خلق الأفعال من غير اشكال ولا يخرجك عن الاشكال فيها إلا التسليم المطلق بما قال الحق ، أو أن تترقى في المواد الكونية وأنت صاعد حتى تنظر إلى الحق تعالى بقلبك وهو يخلق المخلوق الأول الذى لم يتقدمه مادة ، فانك تجد الحق تعالى فاعلا وحده لا شريك له ، ثم تنزل في الفروع إلى أسفل مع مشاهدة سر بيان القدرة الإلهية في كل من أضيف إليه فعل من الخلق فتجده لا يقدر على فعل إلا بإمداد القدرة الإلهية له .

ومن هنا انفتح باب الاشكال لعدم تخلص الفعل حينئذ في الشهود البصرى لله وحده ، أو للخلق وحدهم . ووقع الخطأ ، فمن أضاف الأفعال كلها إلى الله تعالى حسنها وقبيحها ، قال له لسان الغيرة الإلهية ، قل كل من عند الله مما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ، فان نسبة الأفعال إلى الخلق نسبة إضافة واسناد ، لا نسبة خلق وإيجاد ، ومن أضاف الأمور الحسنة كلها إلى الله تعالى وأضاف القبيحة كلها إلى الأكووان ، قال له لسان الجود الإلهى أيضا قل كل من عند الله ، لا تكذبوا له بل ثناء جميلا . كما نضيف نحن ما قبح من الأفعال بما لا يوافق الأغراض ولا يلائم الطبع إلينا



مع علمنا بأن الكل من عند الله . ولكن لما تعلق به لسان الذم فديننا ما ينسب  
إلى الحق من ذلك بنفوسنا أدبا مع الله تعالى ، كما أننا نضيف ما كان من خير  
وحسن إلى الله تعالى ونرفع نفوسنا من الطريق حتى يكون الحق تعالى هو  
المحمود وحده أدبا معه تعالى .

فالذي يجب اعتقاده ، أن الله تعالى خالق أفعال العباد وإنما مكتسبة  
لهم وإن حجة الله تعالى قائمة عليهم وأنه لا يسئل عما يفعل ، ولا يطلب  
الوصول إلى الغاية في ذلك فلسنا مكلفين بها مع صعوبة مراقبها .

أجل لسنا مكلفين بالحوض في كل ما يتعلق بذات الله وقضاء الله وقدره  
فإن هذه المسائل هي سر الحياة الأكبر ، وسر الحياة لا يعلمه إلا الله فليس  
لنا من الأمر إلا التسليم والايان بما أمر الله وبما ورد في كتاب الله .

عن أبي هريرة قال وخرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في  
القدر ، فغضب حتى احمر وجهه ، ثم قال أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم  
إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر ، عزمت عليكم ألا تنازعوا ،

وسأل رجل علي بن أبي طالب عن القدر فقال . طريق دقيق لا تمش  
فيه ، فقال يا أمير المؤمنين اخبرني عن القدر . فقال بحر عميق لا تخض فيه  
فقال . يا أمير المؤمنين اخبرني عن القدر ، فقال سر خفي لله لا تفشيه ،  
فقال . يا أمير المؤمنين اخبرني عن القدر ، فقال إن الله تعالى خلقك كما يشاء  
أو كما شئت ، فقال كما شاء قال . إن الله تعالى يبعثك يوم القيامة كما شئت أو  
كما شاء ، قال كما شاء ، قال ألك مشيئة مع الله أو فوق مشيئة الله أو دون  
مشيئة الله . أما إن قلت مع مشيئته أدعيت الشركة معه وإن قلت درن  
مشيئته استغنيت عن مشيئته ، وإن قلت فوق مشيئته كانت مشيئتك غالبه  
على مشيئته . . .



وبذلك أحال على رضوان الله عليه سائله إلى مجالى القدرة الإلهية  
ومشاهدها . فكانت تلك الاحالة أبلغ الأجوبة وأعظمها لمن ينشد الايمان  
واليقين .

وبدون تلك الاحالة لا يفهم القدر . وبدون تلك الاحالة يتحول القضاء  
والقدر إلى جدل لفظي لا يثبت الايمان ولا يعرف اليقين وإنما يدفع إلى  
الشكوك الأوهام وإلى ما هو أبعد من الشكوك والأوهام .



# الجن والأرواح

والعوالم غير المنظورة

يقول غاندى

« إن العقل شيء عظيم حقاً ، ولكنه يصبح غولاً كريهاً إذا ادعى لنفسه أنه قادر على كل شيء ، محيط بكل شيء ، وإن نسبة هذه القدرة إليه نمط ردىء من الوثنية ، فالعقل عند هؤلاء العقليين وثن يعبد ، كما يعبد الوثني حجراً أو نصباً ، ويعتقد فيه أنه إله .

وهذا خطأ الحضارة الغربية الأكبر ، فقد آمنت بالعقل ووجدت ما سواه وعاشت تحت ظلال وثنية عقلية هي أخطر ألوان الوثنيات وأشدّها اذلالاً وأهداراً للقيم الإنسانية العليا .

والعقل الذى عبده الحضارة الغربية شيء عظيم حقاً فى عالم الحس والمشاهدة لأنهما مجال العقل وموضع تجاربه وآياته ، أما ما وراء ذلك فلا شأن للعقل وما ينبغى له .

ولهذا كانت الحضارة الغربية شيء هائل عظيم رهيب فى الماديات وفى كل ما يخضع للحس والمشاهدة ويقوم على البحث والتجربة ، بينما تأخرت وتعثرت تعثراً مضحكاً فى المعنويات والأخلاقيات والعبادات ، وفى كافة ما يتصل بعوالم الروح والإلهام والوحي والإيمان ، لأنها عوالم فوق الحس والمشاهدة .

والإنسان لو اقتصرته حياته على الحس والمشاهدة فحسب ، لما كان أكثر من حيوان كبير ، لأن الحس والمشاهدة هما مرتبة الحيوان الذى لا يصدق إلا ما شاهده بعينه ولا يعرف إلا ما وقع عليه حسه .



أما الانسان الذى أسجد الله له ملائكته ونفخ فيه من روحه ، فقد وهب مع النفخة الإلهية خصائص روحية عليها هى سره الأكبر وهى حياته المثلى ، وبتلك الخصائص يدرك الانسان أشياء فوق الحس والمشاهدة ، وبتلك الخصائص ترتفع معارفه فوق معارف الحس والمشاهدة إرتفاعاً يؤهله لتذوق المعارف الإلهية ، وتسمو به إلى جلام أسرار مكون الأكوان والاطلاع على عجائب ما أبدعت القوة الإلهية من عوالم منظورة وغير منظورة .

والعلم المادى الذى تعبد به أوربا ومن يعيش فى ظل حضارتها فى أمريكا وآسيا قد ابتدأ نفسه يتنكر للعقل الذى ابتكره وابتدعه ، قد ابتدأ يعترف بأن الكون ملىء بأسرار وعلوم ليس فى طاقة العقل أن يدركها لأنها فوقه فلا سبيل إليها إلا بوحي من الله أو بالهام من عالم الروح .

وتف العلامة انشتاين عند درج صغير فى أسفل مكتبته وقال : إن نسبة ما أعلم إلى ما لا أعلم كنسبة هذا الدرج إلى مكتبتي ،

ويقول العبقري « نيوتن » لسنا إلا كأطفال فى جزيرة على شاطئ بحر العلم نلتقط ما يقذفه البحر من القواقع على حين أن الجواهر النفيسة فى قعر البحر ،

ويقول النابغة الفرنسى « بيو » : إننا لا نشاهد إلا ما يظهر لنا من العلم فى الخارج ، وقد حجب عنا ما هو أعجب وأغرب . لعمر ك قل لى من ذا استطاع أن يفهم سر طيران الذباب ؟ وسر ألا عيب الفراش ؟ نعلم شيئاً عن تركيبها الجسمانى وقابليته ، ولكننا عاجزون عن رؤية الحكمة التى أمرت بها ونظمتها ، إنى أمام مشهد الوجود أعتبر نفسى جاهلاً .

ويقول « كاميل فلا مريون » — ماهو الوسيط الذى يتوسط للقوى العقلية فى إنتاج نتيجة مادية ؟ كيف يوصل العصب البصرى صور الأشياء إلى العقل . ؟ كيف يدرك هذا العقل . ؟ أين مستقره . ؟ ماهى الطبيعة ؟



ما هي طبيعة العمل المخي ؟ لن يستطيع أكبر رأس أن يجيب على أحقر  
أسئلتى ،

تلك أقوال جيابرة العقول في الحضارة الغربية تبرهن أن نهاية العقل  
البشرى هي العجز عن إدراك أسرار الكون . وأن أكبر الجهل أن ننكر  
ما في الكون من آيات الله ومعائب الخلق بدعوى أنها أشياء فوق العقل  
والتصور .

لابد للإنسان أن يرتد صاغرا ذليلا إلى عالم الإيمان والروح ، أن  
يرتد مؤمنا بقوة فوق عقله ، وبعوالم فوق ما يدرك بالحس وما يعرف  
بالمشاهدة . فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون .

اضطررنا إلى هذه المقدمة ، لتبرهن على أن كل ما يتعلق بالعوالم غير  
المنظورة ، كالجن والملائكة والأرواح يجب أن تخضع عقولنا حيالها إلى  
ما جاء به الوحي ، لأننا بالعقل وحده نضل في فهم الروحانيات والغيبيات .  
ولتبرهن أيضا على أن الذين هاجموا المتصوفة في أحاديثهم عن صلاتهم  
بالجن ، وصلاتهم بأرواح الموتى من الصالحين ، قد انحرفوا عن الحق ، لأن  
الأديان السماوية في جانب المتصوفة لافي جانب هؤلاء الوثنيين العقليين .  
والشعراني في طبيعة المتصوفة الذين تحدثوا عن صلاتهم بالجن ، وعن  
صلاتهم بأرواح الموتى من الصالحين ، بل لعله أكثر المتصوفة حديثا عن عالم  
الجن وعالم الروح .

ولهذا كان نصيبه من حملة العقليين ، أكبر من غيره من رجال التصوف  
الروحانيين .

لقد رموا الشعراني بالكذب والدجل ، وبالشعوذة وبالشعبية العامة  
وبالتخريف والتخيل الساذج وما إلى ذلك من نعوت وألقاب يجيدها الذين  
أهوا العقل وانكروا ما فوق الحس والمشاهدة .



يقول المستشرق العقلي ( شاخت ) فى حديثه عن الشعرانى ، إننا مع اعترافنا بخصوبة انتاجه نرى ضرورة الاعتدال وعدم الاسراف عند تقدير عقليته ، لاننا نراه يؤمن إيمانا عميقا بالقوى الخفية وما أكثر مزاعمه بصدد ما وقع له مع الأرواح والملائكة والجن والكرامات والخوارق ، فإن كتبه حافلة بهذه المزاعم .

ويقول المستشرق ( ماكدونالد ) فى الفصل الذى عقده عن اتصال الأولياء بالجن فى الاسلام ، إن هذه الظاهرة إذا كانت مألوفة فى العالم الاسلامى ، فإنها لا تبدوا أوضح مما نراها عليه عند الشعرانى الذى كان على إتصالم دائم بعالمها الخفى غير المنظور .

ويجربى الدكتور زكى مبارك مع المستشرقين فى الفصل الذى كتبه عن الشعرانى فى كتابه - التصوف الاسلامى - فيرمى الشعرانى بالكذب الساذج ، ويصف عقليته بالعمية ، لأنه تحدث عن الجن وعن اتصاله بهم .  
ويعقد الدكتور توفيق الطويل فصلا فى كتابه عن الشعرانى تحت عنوان - التفسير السيكولوجى لكذب الشعرانى - جاء فيه .

إن ما يرويه الشعرانى عن نفسه من اتصال بالأرواح وتعامل مع الجن قد يغرى بالشك ويدفع إلى تكذيبه ، كما كان الحال فى موقف الدكتور زكى مبارك منه ، ولكن تفهم الشعرانى فى ضوء المنطق العقلى وحده يبدو لنا ضلالا مبينا لأن الرجل كان طوال حياته يعيش فى جو دينى مشبع بالتصوف استمد منه غذاء عقله ، وأشبع به جوع قلبه ، ومن هنا كان لا بد من النظر إلى نزعات نفسه وتيارات فكره فى ضوء هذا الجو النفسى .  
وقد انتهت به حياته إلى إيمان عميق مفرط هيمن على منطق العقل فى تفكيره ، وتأدى الاسراف الممغن فى هذا إلى ما يسمعه علماء النفس بالمدركات الخاطئة والأوهام المجسمة فتصور وجود أشباح مجسمة لم يكن لها وجود



إلا في وهمه ، وبهذا انقلبت الحقائق في نظره أو اختلق الكثير منها اختلاقاً فبدت الأشياء التي لا تتضح في عينه ، أشباحاً للجن أو الأرواح ، أو كانت هذه من خلق تصوره لأنها تسير نزعات قلبه ووساوس نفسه وتلتئم مع الجو المعنوي الخفي الذي يستغرقه ومن السهل على من يكون كذلك أن يتمثل الجن في خاطره فتبدو صورها في ناظره أو تتحول صور الأشياء إشباحاً للجن والعفاريات .

فإن حدثنا عن وقائع مع سكان هذا العالم الخفي قلنا أنه مخدوع وليس بخداع ولا كذاب وبمثل هذا تفسر أحاديثه عن تعامله مع الجن وأرواح الموتى<sup>(١)</sup>

والآن فلننظر ما سبب كل هذه الحملة على الشعرائي . روى الشعرائي في المنن ، أن مؤمنى الجن كانوا يحضرون دروسه العلمية ، وأنهم أحياناً كانوا يدخلون عليه ليلاً في منزله فيصالون معه ويسبحون معه على سبحته ، وأن بعض شياطينهم عابثه يوماً أثناء مقامه بمدرسة أم خوند فكان يطفى مصباحه ويزعج أولاده ، فكمن له حتى إذا ظهر قبض على رجله ، وأخذت رجل الجنى ترق حتى أضحت كالشعرة في يده<sup>(٢)</sup>

وأرسل إليه بعض الجن من المشتغلين بالعلم أسئلة في قرطاس يحملها أحدهم في فمه وقد تشكل في صورة كلب أصفر اللون ، وفي مقدمة الأسئلة « ما قول علماء الانس في هذه الأسئلة المرقومة لأنها أشكلت علينا وسألنا عنها مشايخنا من الجان . فقالوا إن هذا التحقيق لا يكون إلا عند علماء الانس ، وقد أجاب عنها الشعرائي في كتابه القيم كشف الحجاب واليران عن وجه أسئلة الجان . »



هذه هي خلاصة حوادث الشعرائى مع الجن فلنعرضها على وجهة النظر  
الاسلامية لنرى هل تطابق أم تخالف .

والاسلام صريح فى وجود الجن وفى أنهم أمم أمثالنا منهم الصالح ،  
ومنهم الشقى ، وان طائفة من الجن استمعت إلى القرآن الكريم وآمنت به .  
بقى بعد ذلك محور الصراع . وهو صلاتهم بالانسان . وهل هى جائزة  
أم مستحيلة . وهل صاحبها كاذب أم صادق .

روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

« وكفى رسول الله بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت يحشو من الطعام فأخذته  
فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال إني محتاج وعلى  
عيال ولى حاجة شديدة . قال تخليت عنه فأصبحت . فقال النبي صلى الله عليه  
وسلم يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة . فقلت يا رسول الله شكاً حاجة  
شديدة وعيالاً فرحمته تخليت سبيله . قال أما إنه قد كذبتك وسيعود ، فعرفت  
أنه سيعود بقول النبي صلى الله عليه وسلم فرصدته ، فجاء يحشو من الطعام  
فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال دعنى فإنى  
محتاج وعلى عيال لأعود فرحمته تخليت سبيله . فأصبحت فقال لى رسول  
الله يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة . فقلت يا رسول الله شكاً حاجة  
وعيالاً فرحمته تخليت سبيله . قال أما إنه كذبتك وسيعود . فرصدته الثالثة  
فجاء يحشو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم  
وهذا آخر ثلاث مرات . إنك تزعم أنك لا تعود . فقال دعنى فإنى أعليك  
كلمات ينفعك الله بها ، قلت ماهى . قال إذا آويت إلى فراشك فاقرأ  
آية الكرسي : الله لا إله إلا هو الحى القيوم : حتى تختم الآية فإنه لن يزال  
عليك من الله تعالى حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، تخليت سبيله .  
فأصبحت فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فعل أسيرك البارحة . فقلت



يارسول الله زعم أنه يعلني كلمات ينفعني الله تعالى بها فخليت سبيله . فقال ما هي . قلت قال لي : إذا آويت إلى فراشك فأقرأ آية الكرسي من أولها حتى تحتم الآية - الله لا إله إلا هو الحي القيوم - وقال لن يزال عليك حافظ من الله تعالى حتى تصبح ، ولن يقربك شيطان ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم . أما إنه قد صدقك وهو كذوب . تعلم من تخاطب منذ ثلاث يا أبا هريرة . قلت لا . قال : ذا شيطان .

والحديث صريح صراحة لا لبس فيها ولا أهام في أن الجنى حادث أبا هريرة وجادله وناقشه وعلمه أيضاً آيات من القرآن تحفظ الإنسان من الجن .

والحديث صريح أيضاً صراحة لا لبس فيها ولا غموض بأن أبا هريرة قبض على الجنى ليرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إن الرسول ليسأل أبا هريرة قتيلاً — ماذا فعل أسيرك البارحة — .

وروى أحمد والترمذي من حديث عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال لعائشة أتدريين ما خرافة . إن خرافة كان رجلاً من عذرة أسرته الجن في الجاهلية فسكت فيهم دهر اطويلا ثم ردتته إلى الإنس . فكان يحدث الناس بما رأى فيهم من العجائب . فقال الناس حديث خرافة .

وفي السير أن الشيطان صاح في عسكر الصحابة يوم أحد . ألا إن محمداً قد مات فترك جماعة من الصحابة القتال فضحك عليهم .

بل إن الفقهاء قد وضعوا أصلاً الجن بالإنسان قواعد فقهية وصلت إلى حد أن تناول الفقهاء أحكام الزواج المختلط بين الإنسان والجان .

جاء في حاشية ابن عابدين . بكتاب النكاح « أن الحسن البصري أجاز التزوج بجنية دون العكس . »



وجاء في كتابه أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب ، أن الدجال  
أحد أبويه جني ، .

وفي القرآن الكريم بيانا وإيضاحا . لوحى الشياطين للإنس ووحى  
الإنس للشياطين ، شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم لبعض زخرف  
القول غرورا ، .

وفي القرآن أيضا بيانا وإيضاحا لأعمال الوسوسة والصرع والمس التي  
تترتب على صلة الجن بالإنس .

وجاء في القرآن الكريم في قصة سليمان ، ومن الجن من يعمل بين يديه  
بإذن ربه ومن يزيغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء  
من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات أعمالوا آل داود  
وشكرا وقليل من عبادي الشكور ، .

وهي آيات كريمة دلت لا على الصلة بين الإنس والجن فقط . بل على  
أن الجن قامت بأعمال مادية للإنسان ، فصنعت له المحاريب والتماثيل والجفان  
والقدور الراسيات .

### (الجن وتحضير الأرواح)

وقد سئل الإمام محمد عبده عن تحضير الأرواح فقال ، لقد حضرت في  
أوربا مؤتمرا يجمع أكابر هذا الفن فحضرت أرواح كثيرين وبعضهم ممن  
أعرفه قبل وفاته . ورأيت ذلك مطابقا لما علمته عن هؤلاء الناس فسألتهم .  
وكلهم اتجهوا إلى ليسمعوا سؤالي . فقلت لهم . إن رأي في هذا أنه عمل من  
أعمال الجن . وناقشتهم مناقشة جديفة في هذا الموضوع إلى أن تحديتهم  
ياحضار روح المصطفى عليه الصلاة والسلام لأسأله عن الأحاديث الصحيحة  
الواردة عنه ولأتبين بلاغته وفصاحته في منطقه إذا تكلم في ذلك الوقت



وكثير من المستشرقين الحاضرين يمكنهم الحكم على ذلك . وليقين بأن النبي محفوظ من أن يتمثل الشيطان بصورته ويؤدي ما يؤديه . علمت أني سأفوز عليهم فلم يلبثوا أن عجزوا جميعاً معتردين بأن هذه روح عالية لا يمكن احضارها ومن ذلك يتبين جلياً أن هذا عمل من أعمال الجن . .

وبهذا تتحد الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية مع منطق الواقع والمشاهد فهل بعد هذا بيان لمن ينشد الحق .

وهل خرج الشعراى فى صلاته بالجن عن نطاق القرآن والأحاديث والواقع المشاهد .

وهل عقلية الشعراى ساذجة متوهمة كما يقول الدكتور الطويل وكاذبة خادعة كما يقول المستشرقون والدكتور مبارك .

أم أن عقولهم هى الأجدر بهذا الوصف . وإن كانوا أطلقوه فى باطل ونطقه نحن هنا فى حق صراح .



## الشعراني المفترى عليه

حيا وميتا

يقول الشعراني . إنه ما كان عظيم قط في عصر من العصور إلا وكان يلازمه ملازمة الظل خصوم وحسدة ، يملئون الجو حوله صياحا وجدلا ، ويشعلون النار فوق رأسه حقداً وحسداً .

ويستشهد الشعراني على ذلك بما وقع الأنبياء كافة ثم لكبار الصحابة وعظماء الرجال في مختلف الأمم والشعوب ، ليعتلي الله عبادته وليتميز الخبيث من الطيب ، ولتمتحن الأعواد الانسانية الصلبة ومقدار قدرتها على البقاء والخلود .

وقد أصاب الشعراني ما أصاب أسلافه من مصاييح الانسانية وأعلام الهدى والإيمان .

فقد ملأ خصومه الدنيا حوله حقداً وحسداً ، وافترأا وكذبا كما أوضحنا في الفصول السابقة ، حتى أذاعوا نبأ موته تشفيا وحقداً .

يقول الشعراني ، وكان حسادي يحرفون عن مسائل لم أقل بها قط ثم يكتبون بها أسئلة ويستفتون عنها العلماء فيفتون بحسب السؤال ثم يدورون بخطوط العلماء على الناس فيحصل لي من ذلك أجور لا تحصى من كثرة الوقوع في عرضي بغير حق ،<sup>(١)</sup>

ولا تزال الأجور التي لا تحصى تلاحق الشعراني في الدار الآخرة ، فالشعراني الذي إفتري عليه خصومه في حياته لا يزال الاقتراء يلاحقه ويتابعه وهو في مقامه عند ربه .

وإن كان خصومه في حياته دفعهم إلى الاقتراء عليه الحقد والحسد ،



فإن خصومه اليوم يدفعهم إلى الافتراء إما التأثر بما قال أسلافهم القدامى ،  
وإما الجهل بما قال الشعراى نفسه .

وهذا باب كبير يكاد يحتاج إلى كتاب خاص ولكننا نجتزئ هنا بمثال  
واحد من أشبع مانسب إلى الشعراى .

نسبوا إليه أنه قال فى المنن إنه بنى زوجته فى قبة البدوى ، وأطلق  
الدكتور زكى مبارك لسانه وألفاظه الضخمة القاسية تعقيبا على هذه الحادثة  
البشعة الرعناء .

والدكتور زكى مبارك ومعه رجال الاستشراق قد أخطأوا فى اتهامهم  
للشعراى فى البديهييات ، أخطأوا كما يخطئ التلميذ الصغير الساذج فى فهم الكلام  
الواضح المبين فيحرف الكلم عن مواضعه ويخرج المعنى عن أهدافه ومقاصده  
يقول الشعراى وهو ما وقع لى مع سيدى أحمد البدوى أنه جاءنى ودعانى  
أيام خروج الناس من مصر إلى مولده . فلما ذهبت إلى (طننتاه) صار كل  
من دخل القبة يسداً بالسلام على قبل زيارة الشيخ حتى استحييت منه ،  
وكانت أم ولدى عبد الرحمن لها معنى مدة سبعة شهور وهى بكر . فجاءنى  
وقال لى إختل بها فى ركن قبى وأزل بكارتها ففعلت ، فطبخ لى طعاما  
وحلوى . فلما رجعت إلى مصر حصل ما أشار به فى تلك الليلة <sup>(١)</sup>

ذلك قول الشعراى ، وهو أوضح من فلق الصباح فالقصة كما هو واضح  
قصة منامية جاءه السيد البدوى فى الرؤيا ودعاه لزيارة مقامه فى طنطائم طلب  
منه فى منام تالى أن يختلى زوجته التى لم يدخل بها رغم مرور سبعة أشهر  
على زواجه بها فى ركن قبته ثم يقول الشعراى فى لفظ عربى مبين — فلما  
رجعت إلى مصر حصل ما أشار به السيد فى تلك الليلة — أى أن الشعراى  
دخل زوجته فى مصر عقب عودته إليها تنفيذا لما رأى فى منامه .

الجزء الأول من المنن ص ١١٢



واللبنانات عند المتصوفة مقام كبير يحتدون في ذلك سنة رسول الله صلوات الله عليه فقد جاء في كتب الصحاح أن النبي كان إذا أصبح يقول لإصحابه «من رأى منكم رؤيا» يعني أعبرها له .  
والشعراني يقول في كتبه إنه كان يئبه في المنام على الأمور التي تقع ، كما كان يئبه على أحواله ومقاماته وذنوبه وأخطائه من باب التأديب والتعليم بالرمز والإشارة .

والشعراني بنى بزوجته كما يقول ومضى عليها معه سبعة أشهر وهي بكر لم يدخل بها . فئبه مناما على خطئه ووجوب الدخول بها وكان مرشده في الرؤيا هو السيد البدوي .

أو لعل الشعراني كان في حالة نفسية حالت بينه وبين الدخول بزوجته فكان المنام الذي رأى سبباً في اصلاح تلك الحالة النفسية أو العقدة النفسية وعلى أى معنى من هذه المعانى فقد صرح الشعراني بأنه لما عاد إلى مصر حصل ما أشار به السيد في المنام . أى أنه دخل بزوجته في مصر لا في قبة البدوي .

وبذلك تنهار تلك الأقصوصة المسرحية التي نسجوها حول الشعراني وما أكثر ما نسجوا حوله من أقاصيص وأساطير .



## صلاته بالملوك والوزراء

يحدثنا الجبرتي، وابن أبياس، والشعراني، وعلى مبارك، وهم مؤرخوا مصر في العصر التركي عن لون الحياة في المدن والقرى المصرية، وعن لون الحكم الذي فرضه الأتراك على مصر حديثاً عجيباً يخلع القلب ويذهل العقل فلقد خضعت مصر خلال الحكم التركي لأقسى أنواع العذاب البربري الهمجي إذ تولى أمورها حكام طغاة جبارة، وزاد من بشاعة جبروتهم جهلهم الفاضح، واستهتارهم بكل المقدسات الانسانية .

كانت مصر خلال هذا الحكم العسكري الدكتاتوري تعاني الظلم والفساد ونشأ عن الظلم والفساد في البيئات الحاكمة انتشار الجهل والفقر والمرض في ربوع الأرض الطيبة والوادي ذى الزرع والخير العميم .

واختل الأمن وفقد الناس السلامة في كل شيء . فابقي للمال أو الدين أو الحياة قيمة أو كرامة .

يقول الجبرتي « وقد كان من عادة الفرق العسكرية التركية أن تشارك أصحاب الحرف في مكاسبهم، فيمضي الجندي منهم إلى التاجر ويخلع سلاحه ويعلقه في المحل ويصبح شريكه في أرباحه، (١) .

ثم يقول واصفاً للفوضى العامة الشاملة « وكان التاجر لا يكاد يستقر في متجره حتى يسمع الناس يتصايحون ويتسابقون في العدو وسرعان ما يحسبها فتنة قد شبت ناراها فيبادر باغلاق محله ويلوذ فراراً .



ويقول صاحب المناقب متحدثاً عن الفلاح والقرية المصرية « وكان الفلاح في قريته معرضاً لنوع آخر من الفزع والجزع ، كان القضاء والكشاف يحطون عليه ويطالبونه بدفع الضرائب والأدوات فإن عجز عن الدفع انتزعوا منه أرضه وأذاقوه العذاب ألواناً وأشكالا بالمقارع والكسارات وعصر الرأس وإمرار الطونس على ظهره وإدخال البوص بين الظفر واللحم والتعليق ووضع الخوذة المحماة بالنار على الرأس ،<sup>(١)</sup>»

ويقول ابن أبياس واصفاً للمباشرين الذين أذلوا الشعب المصرى ونهبوا أمواله : « كان المباشرون كالمملوك يتصرفون في أمور الدولة بما يشاءون وليس على يدهم يد ،<sup>(٢)</sup> .

وكان أخطر ما عانى الشعب المصرى فوق ذلك أن العلماء كما يقول المؤرخون مشوا في ركاب الطغاة من الحكام والولاة وغدوا لهم بطانة وحاشية فزادوهم ظلماً وعدواناً ، وأسبغوا على ظلمهم وعدوانهم ظلاً كاذباً من الدين ؟ ! !

وبقي المتصوفة وخدمهم يحملون مشاعل الجهاد ، ويصرخون في وجه كل جبار : قف من أنت .

ورجال التصوف عرفوا دائماً بانتفاضهم على الظلم والظالمين ، لأنهم ارتفعوا بحياتهم فوق الرغبة والرغبة ، وسموا بإيمانهم فوق ما يذل الناس من شهوات وفوق ما يخيف الناس من جبروت .

أو كما يقول على مبارك متحدثاً عن موقف المتصوفة من جبروت الولاة الأتراك : ولكن هذا الجبروت كان ينحل أمام زعماء المتصوفة .

(١) المناقب الكبرى ص ١٢١ .

(٢) ابن أبياس جزء ٣ ص ١٨١ .



ولقد تركزت قوة التصوف خلال هذا العهد في زعيم التصوف الشعرائي  
وبذلك تمثلت في الشعرائي مقاومة الشعب المصري وتمرده على الظلم والظالمين  
واستطاع الشعرائي بإيمانه وشخصيته وجهاده أن يمثل سلطة الشعب وأن  
يرد العدوان عنه وأن ينتزع له حقوقاً من ظالميه .

سئل غاندى عن السر في أن الإنجليز لم يستطيعوا أن ينالوا منه أو  
يخضعوه لسلطانهم مع ضعفه وقوتهم فقال : يرجع ذلك إلى سببين ، الأول  
أنى لا أملك شيئاً يستطيع الإنجليز أن يأخذوه منى فحرصاً عليه أخضع .  
والثانى أنى لا أطمع فى شىء يستطيع الإنجليز أن يمنعوه عنى وطمعاً فيه  
أخضع . .

وكذلك كان موقف الشعرائي من جبابرة الأتراك ، لا يمد عينه إلى  
مالديهم من متاع وجاه ، ولا يحرص على شىء فى الحياة .

ويحدثنا الشعرائي عن نفسه بأنه كان لا يقبل مالا أو هدية من حاكم ،  
فإذا أحووا عليه تقبل المال بيده وطوح به على مرأى منهم ومشهد من الناس .  
بل لقد رفض أن يلتبس له أحد الوزراء معونة الخليفة فى تركيا وكانت  
فى ذلك الوقت شرفاً أى شرف وأملاً أى أمل .

وكان الشعرائي فى تواضعه يتسكّر على المتسكّرين ، ويتعالى على هؤلاء  
الجبارين ليحفظ كرامة إيمانه وكرامة شخصه وكرامة وطنه .

قال له الوزير الأعظم على باشا عند ما عزم على الرحيل إلى تركيا : إننا  
مقربون إلى الخليفة فهل لك حاجة عنده ؟ فأجاب الشعرائي فى عزة المؤمن :  
ألك حاجة عند الله ؟ إننا مقربون إلى حضرته .

وبتلك العزة الإيمانية يرى الشعرائي أن المملوك فى طاعته لأنه فى طاعة  
الله وفى مصالح عباده ، يقول الشعرائي :



« تشفعت عند السلطان الغورى ، والسلطان طومان باى وخاير بك وغيرهم من بشاوات مصر فقبلوا شفاعتى وذلك معدود من جملة طاعة الملوك لى ، (١) .

وبتلك العزة الإيمانية عدا الشعرائى المحامى الأول عن الشعب المصرى ، أو كما يقول : « وما من الله به على كثرة قبول شفاعتى عند الأمراء ولا أعلم الآن أحدا فى مصر أكثر منى شفاععة عند الولاة ، فربما يفنى الدست الورق فى مراسلاتهم فى حوائج الناس فى أقل من شهر » .

وارتفعت مكانة الشعرائى بدفاعه عن الشعب وبإيمان الملوك والوزراء بأنه رجل فوق الاغراء وفوق المادة وفوق وظائفهم وفوق ما يستعبدون به الناس وقد امتحنوه سرا وجهرا فأرسلوا له الأموال والخيرات فردها عليهم فأعادوها سرا فإزداد اعتصاماً وإصراراً .

وعرضوا عليه الوظائف والهبات من الخليفة فأبى أن يأخذ مالا من حاكم أو حتى أن يأكل من طعامه . لأن فى ذلك ما يخذش عقيدته ، وما يخذش رسالته .

وطارت شهرة للشعرائى بأنه رجل كرامات وآيات وأن من يعصى له أمراً ينكب فى ماله أو جاهه أو حياته .

ويحدثنا صاحب المناقب عن إيمان جبابرة الترك من الولاة والوزراء بكرامات الشعرائى وقوته فيقول : فقد ترتب على هذا الخوف أن الولاة كان إذا زارهم الشعرائى أسرعوا إليه يقبلون يديه ويتبركون به ويجلسون على الأرض بين يديه ويسارعون إلى قضاء أوامره وشفاعاته .



ويقول لنا صاحب المناقب أيضا إن الأمراء كانوا يلتمسون منه أن يوصي بهم خيرا أينما اتجهوا في أرجاء الامبراطورية التركية حتى إنه كتب مرة يوصي العجم والروم بالأمير جاثم الخزاي ، كما كان يولى القضاة والمحاسبين وكبار الموظفين ويرجع إليه في كل أمور الدولة صغيرها وكبيرها .

بل إن علي مبارك ليحدثنا عن خوف الامبراطورية التركية كلها من الشعراني ومسارعتها إلى إرضائه إلقاء غضبه ،

ويكفي للدلالة على مكانة الشعراني ما يرويه لنا أيضا علي مبارك من أن أحد الولاة تعرض لذرية الشعراني بعد وفاته . فتسامع السلطان في تركيا بأبناء هذا العدوان مع أن أحداً من ذريته لم يرفع شكواه إليه . فأرسل السلطان بكف العدوان عنهم وهدد من ركب رأسه في مناوأتهم باعتباره طريد القانون وأندر بأهدار دمه جزاء عناده .

حتى الموت لم يستطع أن يحجب نفوذ الشعراني . لأنه نفوذ قام على الإيمان والعقيدة . وكل ما يتصل بالإيمان والعقيدة خالد لا يفنى .



## الزعيم الروحي - والشعبي

في الشعراني تمثلت خصائص الزعيم الشعبي المكابح على أكل ما تكون هذه الخصائص من قوة نفسية متمردة على الظلم، وقوة بيانية تثير العواطف وتلهب الحس، وفوق هذا وذاك الحاسة الشعبية الساحرة التي تشعر بأحاسيس الجماهير وتتفاعل معها حتى كأنها منها، وهي تقودها وتهيمن عليها .

وفي الشعراني تمثلت خصائص الزعيم الديني الملهم على أوضح ما تكون تلك الخصائص من قوة إيمانية لا يرهبها الظلم ولا ينال منها الاغراء، وقوة أخلاقية لا تلين للشهوات ولا تميل مع الأهواء، وفوق هذا وذاك ذلك السحر الصوفي الأخاذ الذي يضيء على صاحبه هالات القداسة وأضواء الحب والإجلال .

وقل بين رجال التاريخ من جمع بين هاذين اللونين من ألوان الزعامة، فلا غرو إذا رأينا الشعراني يظفر بين معاصريه بالقيادة العامة التي لا تطاؤها زعامات ولا تدنو منها مقامات .

ولقد كان موقف الشعراني في وجه القوة التركية ممثلاً في الولاة والوزراء البداية الحقيقية لبناء الشخصية المصرية المستقلة التي توارت طويلاً تحت حكم المماليك والأتراك حتى وجدت في الشعراني فجرها وصاحبها، فتركزت حوله آمالها وأمانها وأخذت تتسكون حوله شيئاً فشيئاً أولى المجموعات الشعبية المصرية بخصائصها ومميزاتها لتأخذ دورها التاريخي الذي تجلي مشرقاً غالباً خلال حملة نابليون على مصر وما تلاها من أحداث .

وحول الشعراني أيضاً تركزت الآمال في نهضة دينية تعيد للدين شبابه الأول وقداسته السابقة وحرارته الإيمانية التي أضعفتها أحداث التاريخ، ونال منها جمود العلماء وجهل الجماهير .



وكان من زكاة هذه الزعامة الشعبية أنه أعرض عن الوظائف الحكومية لأنه نأثر ولأنه زعيم قائد، والوظائف الحكومية دائماً تنال من ثورة الزعيم كما تنال من مكاتته .

وكان من علامات النجاح لهذه الزعامة الدينية أنه ابتعد بزوايته عن الأزهرو وبذلك أنقذها من الجمود الفكري والجدل اللفظي الذي خيم عليه في تلك العصور ، كما حرر أتباعه وتلامذته من أساطير أديان التصوف ومبازلهم ليرتفع بهم إلى جوهر الدين وليعود بهم إلى صفائه الأول وانطلاقه العلمي وجهاده العملي وغايته المقدسة التي تهدف إلى خير الإنسانية بتلقيها أسمي المبادئ الأخلاقية وأنبئ الفضائل الاجتماعية .

وجهاد الشعراني الديني في سبيل تحرير العقول الإسلامية من الجمود والأساطير لم يشغله يوماً عن جهاده الشعبي في سبيل إنقاذ الجماهير من ظلم الولاة واستعباد الأمراء .

وبذلك ربط الشعراني بين الدين والدنيا ، وأحيا الصلة التي لا تنفصم بين رسالة الإسلام التعبدية العلمية ورسائله السياسية الشعبية .  
هاجم الفقهاء وأديان التصوف باسم الدين وباسم الجماهير الإسلامية ، وكافح الولاة والأمراء باسم الدين أيضاً ولحساب الكتلة الشعبية ، لأن هدف المجاهد الإسلامي والقائد الشعبي هدف موحد مشترك .

يقول الشعراني : «هاكم السادة العلماء الواحد منهم عدة وظائف ، هو واعظ في المسجد ، وهو موظف في الحكومة وطبيب للعائلة ، ولا يقوم بإحدى هذه الوظائف على الوجه الذي يرضى الله . بل هي سبيل للبال الحلال أو الحرام ، لقد عزمنا نحن المتصوفة على رفض الخدمة الحكومية لتفرغ لخدمة الناس كافة ،

ولا ينسبه هذا النقد العنيف للعلماء الذين كان واجبه الأول هو إرشاد



الناس لاجمع المال من أوجهه الحلال والحرام ، أن يوجه قلبه إلى نقد الظالمين من الحكام الذين أحالوا حياة الفلاح المصرى إلى جحيم لا يطاق . يقول الشعرانى :

« كان الفلاح عند موته فى أحلك الأيام السابقة يترك شيئاً من الدراهم لأولاده ولكنه الآن بفعل الظالمين من الولاة لا يستطيع إلى ذلك سبيلاً ، هو يبيع الحاصلات والبقرة والثور لتسديد ما عليه من الضرائب وإذا لم يتمكن من تسديد ما عليه سجن مع زوجته وأولاده ،

ومن أجل تلك الصورة الصارخة لحياة الفلاح المصرى المؤلمة نذر الشعرانى نفسه للجهاد فى سبيل المظلومين كلبية . أو كما يقول الشعرانى ، لقد عزمنا نحن المتصوفة على رفض الخدمة الحكومية لتتفرغ لخدمة الناس كافة ولقد ظل الشعرانى إلى آخر نفس له فى الحياة مجاهداً لا تلين له قناة ولا تخفض له راية ولا تزلزله أحداث ولا ترهبة قوى ، إنه مجاهد فى سبيل الله فلا يخشى سواه . شعاره دائماً كلمته الخالدة « لو انفض الناس جميعاً من حولى ، واهتزت شعرة منى فقد كفرت بالله ، .



## الشعراني

### رجل المثالية الخلقية

وبعد فإن كان الشعراني كزعيم شعبي ، وكمجاهد صوفي قد شاركه في الجهاد والزعامة كثيرون من رجال التاريخ ، فإن الشعراني كما أومن ينفرد بخلق إنساني رحيم كريم مثالي لا أظن أن غيره يبلغ مبلغه عمقاً وإيماناً .  
كان الشعراني بحق رجل الأخوة الإنسانية على أدق معاني تلك الأخوة ولهذا كان يشارك بوجدانه بل بكل أحاسيسه المظلومين والمحرومين يشقى لشقايتهم ويتألم لألمهم : يقول الشعراني « إني لا أشعر بشعور المخذنين والمظلومين حتى لسكان كل عذاب أو ظلم وقع بأحد من الناس وقع بي »  
وكان الشعراني يرى أن الإنسان لا يكون إنساناً إلا إذا شارك الناس كافة في أحزانهم وآلامهم لأن الإنسانية وحدة متماسكة خيرها مشترك وعذابها مشترك . يقول :

« من ضحك أو استمتع بزوجه أو لبس ثوباً مبخراً أو ذهب إلى مواضع المتنزعات أيام نزول البلاء على المسلمين فهو والبهايم سواء »  
وكان الشعراني رحيماً بالناس ، ورحيماً بنوع خاص بالعصاة والمذنبين لأنهم أشد الناس ضعفاً وأحوجهم إلى العطف والنصح والرحمة . يقول متحدثاً عن مبادئه

« ثم سترى لعورات الناس وعيوبهم ، ورحمتي بالعصاة حال تلبسهم بالمعصية فإنهم أشقى الناس حينئذ ،

ويقول « ثم كثرة رفقى ورحمتي لمن شكأ إلى كثرة محبته للعاصي لأنه مريض . ثم غيرتني على أذني أن تسمع زورا ، وعيني أن تنظر محرماً ولساني أن يتكلم باطلا »



وتمتد رحمة الشعرائى إلى الحيوان الأعمى لأنه ضعيف مسخر للإنسان  
وتم كثرة شفقتى على دابتي وكراحتى أن أحمل سوطاً . .

بل لقد كان الشعرائى يرى أن العبادة لا تصلح إلا بصلاح القلب ونقاء  
الأخلاق فكان لا يقوم إلى الصلاة إلا إذا فتش قلبه هل فيه غل أو حقد  
أو حسد أو نميمة أو شهوة صغيرة أو كبيرة بل كان يستحى أن ينام وفى  
قلبه شىء من هذا لأن النوم رحلة الروح إلى الملاء الأعلى

ويستطرد قائلاً ثم أخذى كل كلام وعظت به الناس فى حق نفسى أولاً  
وفى حق الناس ثانياً واستغفارى من ذلك ثالثاً ثم عفوى العام عن كل مسيء  
إلى ، ثم كثرة اهتمامى بحمل هموم عدوى قبل اهتمامى بهموم صديقى ،  
ويسمو الشعرائى فى أدب النفس ويرتفع فى معارج الأخلاق فيقول  
وما أنعم الله به على عدم خروجى من بيتى إلا إذا علمت من نفسى القدرة  
بإذن الله على هذه الثلاث خصال : تحمل الأذى عن الناس ، وتحمل الأذى  
منهم ، وجلب الراحة لهم ،

فإذا كملت هذه الثلاث ارتفع الشعرائى درجة بل درجات فيضع  
- الطليسان - على وجهه ليكف بصره عن فضول الناس .

تلك الكلمات المضئمة ، الكلمات الروحية الصافية التى تتلأل بالنبل  
والشرف ، هى بعض خلاق الشعرائى ، وإنه لخلق يرفعه درجات ودرجات  
فوق علمه وزعامته . . .

طه عبر الباقي - سرور نعيم

٢٠ ربيع الأول سنة ١٣٧٢

١٩٥٢/١٢/٨



## بعض مصادر الكتاب

العقاد	غاندى	الشعرانى	المنن الكبرى
محيى الدين بن عربى طه عبد الباقي سرور		•	الطبقات الكبرى
التصوف الإسلامى - زكى مبارك		•	العهود المحمدية
التصوف فى مصر - توفيق الطويل		•	تنبيه المغتربين
الشعرانى	توفيق الطويل	•	اليواقيت والجواهر
صفاة الصفاة	طبع الهند	•	كشف الغمة
الطواسين	ماسنيون	الغزالي	إحياء علوم الدين
كشف الظنون	حاجى خليفة	•	التفرقة بين الايمان والزندقة
وفيات الأعيان	ابن خلكان	الطوسى	اللمع
صحيح البخارى	البخارى	أبو طالب المسكى	القوت
صحيح مسلم	مسلم	القشيري	الرسالة القشيرية
الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع		للمناوى	الطبقات الكبرى
الهجرى	آدم منز	المقرزى	خطط المقرزى
حلية الأولياء	أبو نعيم	محيى الدين	الفتوحات المكية
مفتاح السعادة	طاش كبرى زاده	ابن الجوزى	تلميس إبليس
حجة الله البالغة	الدهلوى	ابن خلدون	مقدمة ابن خلدون
مجموعة تراث الإسلام		ابن القيم	أعلام الموقعين
الخطط التوفيقية	على مبارك	ابن تيمية	الرسائل
بدائع الزهور فى وقائع الدهور			دائرة المعارف الإسلامية
ابن إياس			شرح لامية العجم الصلاح الصفدى



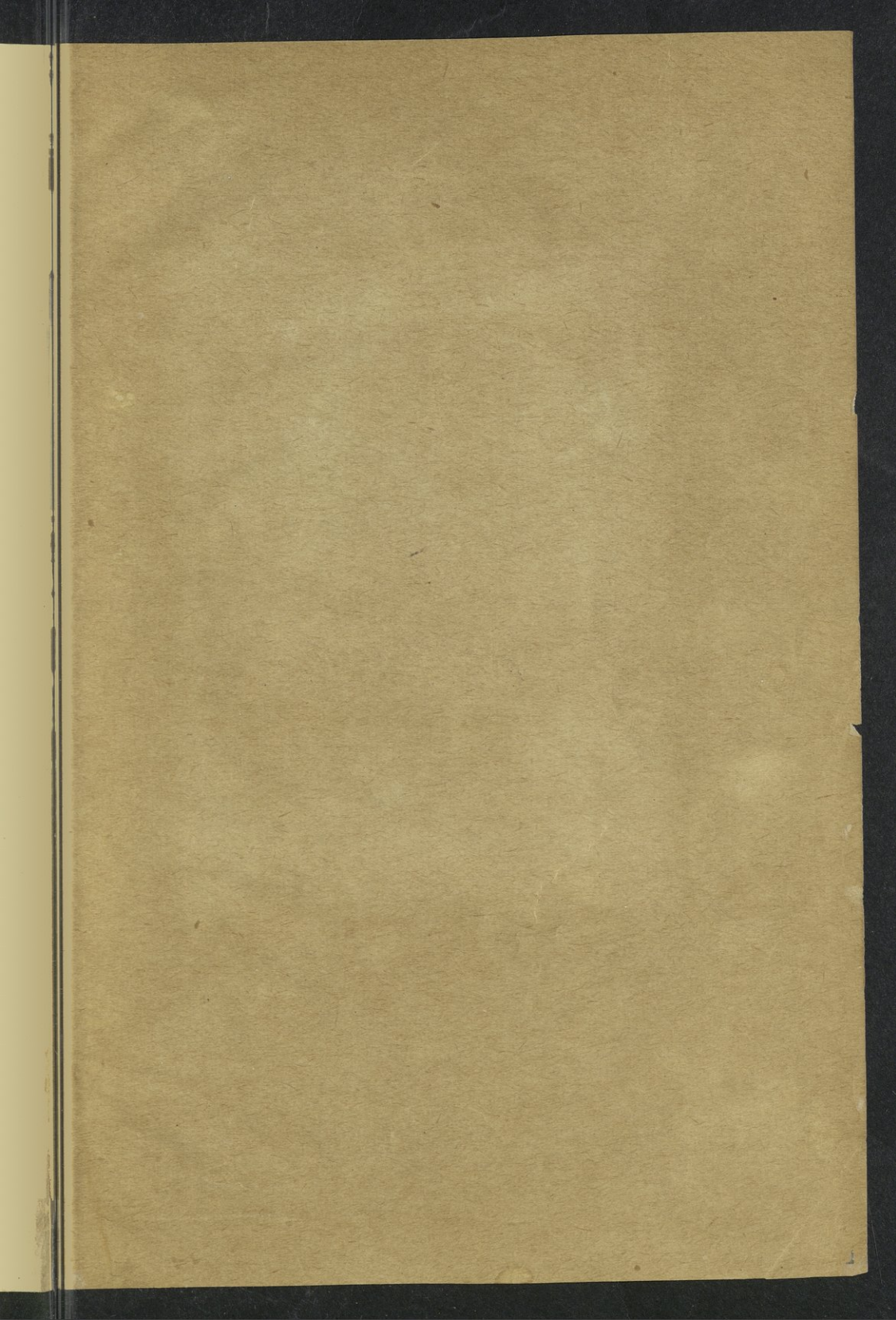
## محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
التصوف برىء من وحدة الوجود	٨٩	بين يدي الطبعة الثانية	٣
مقام الفناء وأخطاء الحلوليين	٩٣	الأفق الأعلى	٦
مقام الفناء وابن تيمية	٩٩	نشأته وحياته	١٧
جهاز الشعراني	١٠٣	الشعراني في القاهرة	٢٢
السبحات الفلسفية والتصوف		الشعراني طالب العلم	٢٦
الشعراني وأدباء التصوف	١١١	الشعراني في طريقه إلى الله	٢٨
موقف الشعراني من المتصوفة العاطلين	١٢٤	شيوخه في الطريق	٣٣
الشعراني وفقهاء الأزهر	١٢٨	الشعراني والخواص	٣٧
فقهاء عصر الشعراني	١٣٥	الشعراني في مدرسة خوند	٤١
ثورة الأزهر على الشعراني	١٣٩	الشعراني والخليفة	٤٣
الشعراني وعلماء الكلام والتوحيد	١٤٤	زاوية الشعراني	٤٦
الجن والآرواح والعوالم غير المنظورة	١٥١	إلى الملا الأعلى	٥١
الجن وتحضير الأرواح	١٥٨	رسالة التصوف	٥٤
الشعراني المفترى عليه	١٦٠	التصوف الإسلامي والمعارف العالمية	٥٩
صلاته بالملوك والوزراء	١٦٣	الطريق الرباني والمعارف الإلهية	٦٢
الزعيم الروحي والشعبي	١٦٨	هل تتعارض المعارف الصوفية مع القرآن والسنة	٦٩
الشعراني رجل المثالية الخلقية	١٧١	التصوف المفترى عليه	٨٠

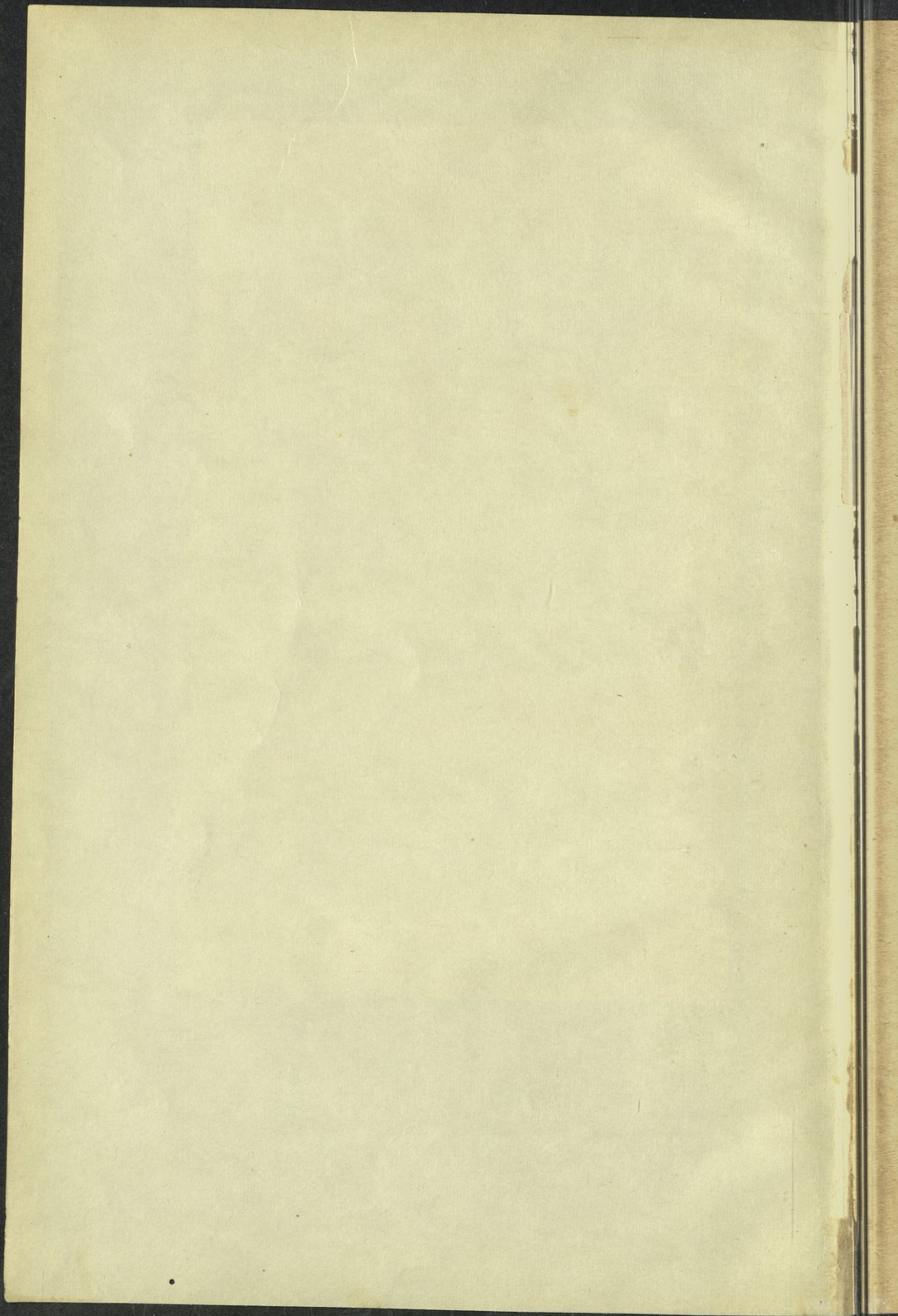


مطبعة النهضة المصرية













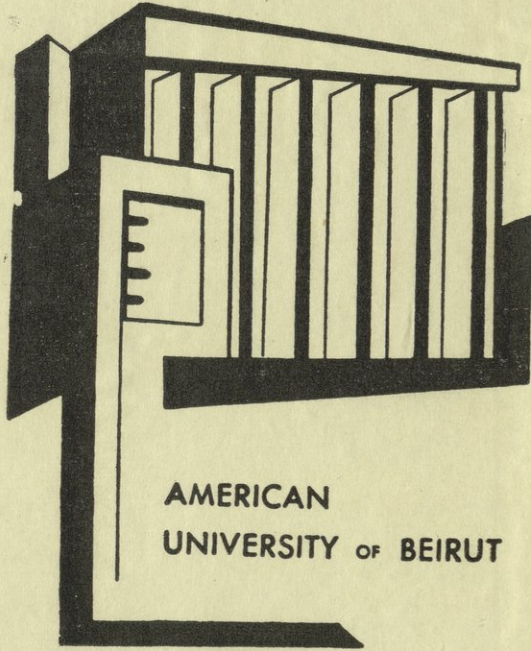


**A.U.B. LIBRARY**

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01008790





297.4  
Su962tA  
c.1